حِكَايَة اَلكَائِنِ اَلسّرِيّةِ

1

الأنصاري، أحمد

حكاية الكائن السرية/ أحمد الأنصاري

ط 1 – 2024 القاهرة- ج. م. ع.

131 ص؛ 21 سم

1-رواية 2-العنوان أ – المؤلف

رقم التصنيف: 008. 813

رقم الإيداع: 4672/2024

I.S.B.N.: 978-977- 751 -796 -6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: أحمد الأنصاري

أحمد الانصاري

حِكَايَة اَلكَائِنِ اَلسِّرِيَّةِ

رواية

إهداء

إلى أمي وأبي.....

لست أعرف ما يجرى هنا، ولعلني لستُ ذكيًا بما يكفي لفهمه، حتى لو تطوّع أحدهم بشرحه لي. كل ما أعرفه هو أننا خاضعون لاختبار ما، اختبارٍ يجريه شخص ما أو شيء ما أذكى منا بكثير، وكل ما أستطيع فعله هو أن أكون ودودًا وأحتفظ بهدوئي، وأحاول الاستمتاع بوقتي حتى ينتهي كل هذا.

حوريات تيتان

كورت فونيجت

ترجمة. سامح سمير

1

كان نبيًا غلمانيًا

أقصد معلمًا في مدرستي الابتدائية، في نهاية اليوم الدراسي، لمحته في أحد الفصول. كانت أصابعه الغليظة تقترب مني وابتسامته الحمقاء تلهو عني، ورائحة عرقه تخنقني. انتظرته أمام حجرته المفضلة، حجرة الرسم، المغطاة لأرسم الأيدي الصغيرة المرتعشة برموز الاستغاثة الباكية. دائمًا ما كنت أنظر لها وأتأمل صدى الألوان الصارخ في عين المتلقي الضاحك لها باستهانة واصطناع. دائمًا ما لفتني اللون الأحمر الزاعق في اللوحات المُعلقة على حوائط حجرة الرسم، وكلما دخلتُ إليها، صرخت في وجهي. صرخات مكتومة، وقد توطدت علاقتي بها. كنتُ أعرف طفلاً أشقر. يحب الذهاب إلى حجرة الرسم. كان يرسم ببراعة بينما كنتُ أرسم ببشاعة. كان النبي الغُلماني يعلّق لوحات الأطفال إشباعًا لرغبته في تأمّل مردود إبداعه، ومن بينها لوحتي البشعة، التي وصفها بالمثيرة، فكل الأصناف وردت عليه، إلا فئة الطفل التجريدي. فلا يفهم هذا الفن إلا هو. لم يكن أحد يدري بما يفعل، ولم أكن أدري بما يفعل، ككل الأطفال الذين لا يكترثون، كالملائكة، بالأهواء الدنيئة وباللمسات الخبيثة. انتظرته سنوات، ويا ما حلمتُ بهذه اللحظة. وقفتُ، مستندًا إلى السور الجيري، ولمحته نازلاً على الدرج، ومعه طفل، كما توقعت. حجرة الرسم في آخر الرواق، والرواق زقاق ضيق. كنت أظنه أطول من قبل وأكثف عتمة من الآن. لم يلمحني، واتجه نحو الحجرة. يا ثابت.. يا خول. قلتها بصوت يحمل بُحّة البلوغ المهتز. التفتُّ وما زلتُ مسمّرًا في مكاني. سبع سنوات عدت، وعيناك تطاردانني. سبع سنوات انتظرتُ تلك اللحظة. سبع سنواتٍ خطّت شاربًا هزيلًا على فمي. منذ سبع

سنوات، كنتُ أنظر إليك من الأسفل، وبعد سبع سنوات، أنظر إليك من الأعلى. ما زلتَ على قباحتك يا ابن القحبة. أريد رؤية عينيك. أريد رؤيتك لتعرفني. تحرّكتُ نحوه ويدي في جيبي. أنا.. بتقولي أنا. قالها متلعثمًا متفاجئًا من حداثة عمري. حاولتُ الرد عليه، فخرج صوتي مبحوحًا، كأنه يرتدّ في حلقي، كلما اقتربت منه. أبتعد خطوة عني. أنت مين؟ خطوات منه ولمحت عينه السوداء ذات الهوة العميقة. عينه لم تفارقني كل تلك السنين. أخرجتُ من جيبي زلطة طويلة كحبة البطاطس وقذفتها بكل قوتي، فطاشت مع ردة فعله وارتطمت بالحائط الإسمنتي، مُحدثةً صوتًا مكتومًا. خَبَأ وجه بيديه، فترك الطفل من يديه، فأخرجت أخرى وصوّبتها إلى مركز أسفله، وقد اقتربت منه مسافةً كافية، فأصابته، فصرخ. يا ابن الكلب.. آه يا ابن الكلب. هرولتُ إليه، وقد انحنى متألمًا، ففاجأني بقبضة لطمتني على صدري، لم أتوقعها، لاندفاعي الطائش، فارتطمتُ بالحائط. فانفطرت حماستي ودقّ قلبي بقوة، فأمسك بياقتي. أنت مين يا ابن الكلب؟ أنت مين؟ نظر إليّ مدققًا، مخترقًا العتمة. أنت كنت عيل هنا.. وشّك مش غريب عليا.. أنت اشتقت ليا، وكأنه نطق بما كنت أحتاج إلى سماعه.كان سكين مسنون ملفوفًا بورق جرائد في جيب بنطالي المثقوب. لم أشعر بنفسي ولم تتوقف الطعنات في جسده إلا عند رؤية عين الطفل المنكفئ على الحائط. لم أعِ بنفسي إلا عند رؤيته، حاضنًا حقيبته ومقرفصًا في زاوية الحائط. لم يهرب، وبعينين صغيرتين راقب ما حدث. عين الطفل أنقذتني وأعادتني إلى الواقع، لأعي وأفرّ هاربًا.

***

2

رقدت ثلاثة أيام

وقد أصابتني الحمى الشديدة ، مما أصاب عمتي بالجزع والخوف. عندما عدت في ذلك اليوم، كانت أزرار قميصي مبتورة، وآثار الدماء منشوعة، ووجهي ملطخًا بالتيه. كنت أحتاج إلى غفوة من النوم، وحرارة جسدي الملتهب زادتني هدوءا وتكرارًا متزامنًا لفعل القتل. لقد قتلته لمرات متوالية لا تنتهي، بأدوات متنوعة وأساليب مختلفة، في عالمٍ موازٍ مصبوغٍ باللون الأبيض، لون النيون الأبيض في حجرتي. عندما فتحت عيني وتشبعَت به في ذلك اليوم. لم تغلق عيناي بعدها إلا عليه. كنت أراقب ضوء النهار وهو يخترق النوافذ في فترة الظهيرة، هاربًا من الستائر المتدلية. أراه ينفذ ويشكّل أضلاعًا من الحبيبات السابحة. أقف في داخله. أغلق عيني. أرى أشكالاً تسقط مع حركة جفني. أشعر بالدفء. أفتح عيني. ومضاتٌ تلاحقني ، بقعٌ تعمي رؤيتي. أرى الحبيبات السابحة في ضوء النهار الأصفر، فلماذا لم أرها في ضوء النيون الأبيض؟ حاولت رؤية حبيبات النيون الأبيض، لكنني فشلت في ذلك، رغم قناعتي بوجودها.

تولت عمتي حضانتي بعد انفصال والديّ. أبي طفش، وسمعنا عن سفره إلى دولة خليجية ما، وأمي لا نعلم عنها شيئًا. من حسن حظي وتعاسة حظها، حظ عمتي، أن عنوستها منعتها من الزواج. أراها أجمل النساء، لطيبة قلبها وحنانها المنهمر. كنت أذهب معها إلى سوق الخضار، وأرى دلالها وفطنتها أثناء الشراء، وأسمع عبارات من حين إلى آخر، من البائعين عنها على اعتبار. (آومال لو كانت جميلة بقا.. كانت عملت فينا ايه؟) كنت حينها لا أفهم القصد من العبارات الأخرى

المرادفة لهذا المعنى (الجمال.. جمال الروح). (ده ابنك.. احلى منك). عندما بدأتُ أعي الجمالَ الأنثوي، وقارنت بين الوجوه، كانت عمتي في نظري أجمل النساء، رغم آراء الآخرين عنها. في ليالي الشتاء القارس، كانت تنام بجانبي، تحتضنني، وتقبلني، وتمسد على شعري . كنت أشعر بدفئها يلفحني، فأنعس في نعومة. تعودت على سماع صوت ماكينة الخياطة اليومي، وعلى الحضور الدائم للجنس الناعم في بيتنا. كانت مصدر رزقنا، تُبعدنا عن العوز إلى الناس، ومن وقت لآخر، كانت تصلنا من أبي نقودٌ متباينة في قيمتها وتوقيتها، فأحيانًا نقبع شهورًا من الضنك. فتقول عمتي. طيب مش يحاول أبوك يبعتها شهرية.. تبقا كل شهر.. أحسن من الزنقة دى. لم أشعر بوجوده إلا عن طريق المال، ولم يأتِ لزيارتنا أبدًا. وعمتي على الدوام، تدعو له بالهداية.

***

3

كان اللون الأبيض رمزًا لفترة الطفولة النقية

الجلباب الأبيض وقت صلاة الجمعة. الجموع البيضاء في المسجد. أوصيت عمتي بتفصيل واحدة بيضاء. أنت يا عادل تصلى الجمعة.. ما تكمل باقى الفروض! لا أعرف لماذا لا أكمل باقي الصلوات. لا تجذبني. لا أحد يذهب إلى الجامع إلا في شهر رمضان، وفي وقت صلاة التراويح. تتبدل كل الألوان إلى الأسود القاتم، فرهبت منها، رغم القيمة في قضائها.

بدأ الأبيض يعبر بي إلى العالم الآخر. عالم الرجولة، والإحساس بهذا العضو الرخو النائم عند رؤية معلمة الإنجليزية. كان الأبيض يتجسد فيها؛ القميص الناصع. الفستان الواسع. الجيب الضيق، وأتعجب. ألا يرى أحد هذا الجمال؟ إنه يتسلل إليّ ويحرك أجزاء مني. في مرة انحنت،

لتأخذ الكتاب من أمامي، فكانت اللحظة كافية لرؤية حمالة الصدر البيضاء الشفافة. اختلستُ فرصة أخرى من وسط جموع الطلبة في فترة المغادرة، وهي تقف بينهم. اقتربت بحذر، ولا أعرف بالضبط ماذا أفعل، سوى متابعة حركة يدي وهي تحتك بالجينز الأبيض. استغربت تلهفي، لأنني لم أفعلها من قبل!

كانت تزورني في كل ليلة، فتنْتَفضُ كلُّ خلية فيّ، ويتدفقُ الماءَ الأبيضُ اللزجُ المخزّنُ في ركبتي،كما عرفتُ من الأصحاب.

***

4

بعد انتهاء مرحلة الثانوية بالفشل

نزلت إلى ورشة النجارة. لا مستقبل لكَ يا عادل إلا بالعمل والاعتماد على نفسك. هززتُ رأسي، وكالعادة، أوافق عمتي في أغلب الأمور، لإحساسي بصدق أقوالها وصحة أفعالها. أدخلتني النجارة بيوت الأغنياء المنعزلة بأسوارِ إسمنتية عن أحياء الفقراء، وبرغم الفروق الشاسعة بيننا، لم أحقد عليهم في نفسي، بعكس الأسطى (صاحب العمل) وباقي الصبيان معه، عند إغلاق الباب علينا وشعورنا بالاستقلالية. تنهال الشتائم والحسد على أصحاب النعم، وتلعنهم الأفواه بكل ما تخبئه الصدور من الصدق، بينما تتبدل النغمة أثناء المقابلات والاتفاقات، ترى ابتسامات الوجوه في صفاء، وتنضح الألسنة بالدعابات والأذكار الأحمدية. كان هذا التباين الغريب يثير السؤال. أللون الأبيض وجه آخر؟ كوجه المرآه، تعكس الصورة على السطح، بينما الظهر الرمادي قاتم اللون بلا ملامح، أفي نفوسنا اشياء لا تعكسها حواسنا، لا تنطبع على

المرآه، لا نراها، وتنعكس بعكس ما نشعر به؟ شعرت بذلك في تلك الليلة.

***

5

في تلك الليلة

كنا أصدقاء كارِ واحد، ومهنة واحدة. بعد انتهاء أعمالنا. نجلس على القهوة نلعب الدومينو ونسهر حتى الفجر. كنتُ قد تجاوزت العشرين بسنوات. أشار أحدهم علينا بسبوبة عمل. أشار ذو الأصابع المبتورة بأصبعيه الباقيين(وتلك الأصابع المبتورة هي علامة الجودة في مهنة النجارة) وقال. فاكرين الولية اللي ساكنة في العمارة في المهندسين.. اللي لسه مخلصين الشغل بتاعها. هززنا رؤوسنا. احنا نروح أحنا الأربعة.. وفاضل مبلغ متبقي.. آخر دفعة ليا.. نثبتها هناك وناخد اللي فيه النصيب.. الولية وحيدة. وعادل هنقنعه آزاى؟ قالها أحدهم. ورد عليه صاحب الأصابع المبتورة. ملكش دعوة بعادل.. أنا هقنعه.. محدش يقول له هنعمل أيه.. أحنا محتاجينه.. قلبه ميت. وأفرض كان معاها حد في الشقة وقتها؟ أومال أنتوا معايا ليه.. أنتوا مش رجالة؟ لم أعرف ما دار بينهم الإ بعد حين. انتظرنا ذا الأصابع المبتورة ليدخل وحيدًا إلى الشقة لمقابلة الزبونة، ثم صعدنا إليها. فتحت لنا الباب عن اعتياد وطيب خاطر، فدلفنا ندفعها بقوة، مرتدين على وجوهنا الثلاث أقنعة شفافة، ولطمتُ ذا الأصابع المبتورة بعفوية حتى تبتلع الطُّعم وتؤمن بكونه ضحية معها. وقفتُ أثبّتها بمطواتي، مانعًا أي حركة منها. دخلا إلى حجرة النوم، وفجأة، رقعت الولية بصوت كان مليئًا بالتفافة في وجهي زي الموس الحاد، ممزقًا صمت جوف الليل. كانت صرخة كافية لكل

شيء. خروج الجيران لاستطلاع مصدرها. تجمع الخلق في الشارع لمعرفة صاحبتها. اقتراب وصول ضابط على الأقل، ثم تجمّع الناس للمساعدة، وذلك ما حدث بعدها بدقائق. أما الآن، وفي الثواني المتلاحقة، كانت مطواتي تغوص في الكبد، عابرةً شحم العروق والشرايين. كانت خطتنا الهروب بهدوء، وكانت خطتي الهروب دون إثارة أي شبهة. للحظة، أصبت بعمى لا أعرف مصدره، ليس عمى الرؤية، بل عمى عدم التصديق. رأيتهم يهربون بعجلة من أمرهم. لحظات كلفتني التأخر ثوانٍ عن الهرب. نزلت على الدرج، وحالة العمى لم تنسحب بعد، عمى التيه في ماذا فعلت وأين أنا؟ نزلت إلى مدخل البناية، وأسمع صياحًا يتعالى من الشارع. الخارج مجهول والداخل مكشوف. لقد سقطت في المصيدة. باب العمارة مفتوح على حرية غير مضمونة. تلفَّتُّ حولي، لأجده إلى جانبي، فرأيت إلى جانبي دولابًا خشبيًا مثبتًا على الحائط. حركت دلفته، فوجدت بداخله مواتير من الماء؛ ديكورًا خشبيًا لإخفاء بالونات المواتير الملونة. انحشرت خلاله في وضعية غير مريحة بالمرة، وأغلقت دلفته، ولبثت في جوف الظلام.

***

6

اللامعنى يحتمل كل شيء كل الافتراضات

كنت في وضعية ترقب، أنتظر انكشاف أمري مع كل دقيقة تمر. أصواتٌ تقترب وتبتعد. لا أعرف بالضبط ماذا سيحدث، وهل سينكشف أمري؟ اهرب الآخرون بسلام أم قُبض عليهم، واعترفوا بكل شيء عني؟

أصواتُ أقدامٍ تركض، تقترب ثم تتوقف. جلبة النساء تتعالى، وأصواتٌ متفرقة تأتي من جهة الشارع . إن انكشف أمري، هأخد علقة

موت محترمة حتى تنتشلني الشرطة من أيديهم. لم أقتل من قبل، إلا ذلك الرجل المعتوه، ومنذ تلك الحادثة، تخلصت من كل شيء له صلة بالقتل، حتى السكين وملابسي. عاهدت نفسي على النسيان، وأحيانًا يرسم الخيال صورةً لشخص آخر يقتل، وأرى نفسي في وضعية ذلك الطفل المقرفص، الباكي خوفًا من هول المشهد. أما المطواة، فقد انتزعتها بالصدفة من إحدى الخناقات، وقد سقطت سهواً من أحدهم، ولم أستخدمها في عركات المنطقة، وكنت غالبًا أخرجها للتهويش ليس أكثر، للترهيب فقط. لم تلمس جسد كائن إلا تلك الولية الشمطاء. أخذت نصيبها من الدنيا وعمرها انتهى لحد كده.

الدقائق مربوطة بأحجار لا تتحرك. صوتٌ حاد يأمر ويشخط، أظنه أحد الظباط أو أحد سكان العمارة. أسمع عبارات متفرقة. عيال حرامية قتلت وسرقت الشقة. حد شاف حد فيهم. بيتقال آتمسكوا. بيتقال لسه. حاولت إسناد جسدي على وضعية مريحة حتى لا يتخدل، فينكشف أمري. كنت أسمع بصعوبة، خاصة مع دوي أصوات عدادات المياه في الخلفية، عبارات متداخلة مقتطعة السياق.

عندما هدأت الأصوات قليلاً والليل بدأ ينتصف. أضأت هاتفي. فكرت في الخروج من مخبئي، لكني استبعدت الخاطر. ليس الآن. انتظرت أن يغلق البواب باب العمارة ثم أنقضّ عليه. استبعدت أيضا تلك الفكرة. وما ذنب هذا الرجل؟ قررت انتظار هدوء الوضع، لكنه لم يهدأ بعد. من المؤكد وجود دورية شرطة تراقب باب العمارة. تترقب أي هفوة. وإن صعدت إلى السطح، هذه عمارة شاهقة العلو. هل أقفز إلى العمارة المجاورة؟ أنت فاكر نفسك في منطقتكم. تتمشى على سطوح البيوت القديمة المتحاضنة.

غفوتُ لحظات ثم وعيت على صوت أحد المواتيرِ يئن بصوت ممتد: عاااااااااااااااااااااا في استمرارية. لاحظت خيطًا رفيعًا من الضوء، يرسم خطًا طوليًا تحت قدمي. يتمدد ببطء، يفرد مساحته كما تتفتح الوردة. تسلل الغازي النحيل عبر بقع الظلام، يخترق محيطي الضيق، يحدثني بلغة لم أتعلمها بعد. كان ضوءًا، تخيلته يعبر مسافات شاسعة، يقطع الأراضي والمباني والكباري، يتسلل بين العمال المعلّقين على السقالات، يعبر فتحات أقفاص الخبز البلدي الطائرة، يقفز فوق أطفال عراة يغوصون في النيل، يعبر كل شيء، ليصل أخيرًا إلى مساحتي الضئيلة. يتسلل من فتحة باب العمارة المعدني، عبر الفلق الخشبي في الدولاب الذي أحتمي داخله. يبحث عني. يطمئنني. كان إشارةً على الثبات والاحتمال. حاولت رسم خطة تحركي للهروب، واسترجاع تفاصيل مدخل العمارة بكل ما ترسمه ذاكرتي. ربما تقع حجرة البواب تحت الأدراج الصاعدة إلى الدور الأول، أو تقبع فوق السطح. ما المسافة التي تفصلني عن البوابة، في أي اتجاه أسير تحديدًا، وإن رآني أحد، كيف أتعامل معه؟ كنت أسمع صوت البواب، أحسنت تمييز صوت زحف نعليه على البلاط. كلما اقترب من مكاني. أمسكت بمطواتي متحسسًا إياها لأي حركة طارئة. انتظرت حتى وقت الظهيرة، لأخرج كما خططت في ذهني. وقتٌ لا يشكّ فيه أحد، وأغلب الحرامية يتحركون خلاله. ارتبت من بواب العمارة. يجب التأكد جيدًا من ابتعاده لمسافة كافية، واعتمدت على أذني قدر ما تسمح به وسط صخب المواتير المتزامن بلا توقف. وقت الغداء أظنه أنسبَ موعدٍ لتحركي، لكني كيف أحدده؟

حاولت الانتظار والهدوء لكن حان وقت تحركي. ببطء أسدلت الدلفة المتحركة على عجل؛ ينزلق بحركة أفقية. خرجت بجانب جسدي ويدي تعبث بأحد أسلاك المواتير، فقطعته عن عمد، أسدلت الباب من

جديد، ثم مشيت ولم تكن تفصلني عن البوابة سوى خطوات. أنت يا آخينا؟.. خد هنا.. خد هنا. سمعتُ صوت البواب من ورائي. سكنت في مكاني. أنت مين وخارج من هنا ليه؟. قلت. أنا سباك وفي شقة كلمتني بخصوص ماتور ميه. ماتور أيه؟. ماتور متعطل. مين اللِي كلمك.. محدش بلغني بحاجة؟. قلت. مش فاكر اسمه كويس.. تقريبا في الدور الرابع. لقد وقعت في خطأ التحديد. قال البواب. الدور الرابع.. الدور الرابع.. محدش بلغني بمشكلة عنده؟. قالها على طريقة خبث الفلاحين. مين اللي كلمني طيب؟. قلتها بنبرة طيبة مبالغ فيها أثناء تحركي نحو الدولاب المنزلاق، وأشرت إلى السلك المنزوع. شوف كده. اقترب منه وبحلق فيه بعينيه الغبيتين. فقلت له. أنت في أوضتك دي. وأشرت إليها. بها واصلة مواسير صرف؟. أيوه فيها.. عمومي. وريني كده. تحرك معى إليها. كانت حجرة ضيقة. دخل وحاول ضغط زرّ الإضاءة، فردّت عليه مطواتي وشقّت عنقه. كانت حادّةً فعلاً. شعرت بعظمِ الرقبة في يدي، وخدرِ يسري في جسدي. الرؤية تختلط، والعمى يهب وينجلي. لزوجة الدم كبحت صوته عن الخروج. الأبيض يتسلل إلى أصابعي. ماذا أرى؟ حاولت التحرك وترك المكان فى سرعة تسمح بها أعصابي. مشيت وخرجت من البوابة الحديدية، وضوء النهار يغشى وجهي، يعميني لدقائق. مشيت وقد أصابني العمى، أحاول السير لأطول مسافة ممكنة. الأبيض يتبعني. يتقاطر من يدي. جسدي يشتعل. جلستُ على الرصيف، أهدئ أعضائي تحت ظل شجرة.

***

7

عدت إلى البيت منتشيًا

لم أجد عمتي. فدخلت إلى حجرتي وأضأت لمبة النيون، التي لا تُطفأ أبدًا إلا بعد خروجي من البيت. أخرجت هاتفي وطلبت رقم ذي الأصابع المبتورة. عدولة.. أنت بخير.. أنت فين؟ أنا بخير.. حد أتمسك من الرجالة؟ ولا حد.. أنت فين؟ في البيت. افتكرنا أنك اتمسكت. لا هربت.. عايزين نتقابل. أكيد هنتقابل اصبر شوية.. الدنيا تهدء شوية. أنهيت المكالمة وداخلي يستجم هدوءًا.

مرت أسابيع، والسوق في حالة من الركود المزمن، وأسعار ألواح الخشب في تزايد مطّرد، وموجة تضخمية ضربت كل شيء. ده حتى السجاير المحلية بقا ليها سعر.. فين أيامك يا أبو علاء (حسنى مبارك) كانت الغالبية تذكره بآراء متباينة، لكنها تتفق على فساد جمال (ابنه) وحاشيته. لم أكن أكترث لكل ذلك. أهز رأسي على كل الآراء والاتجاهات. أتفق فقط مع من يأتيني بمصدر للنقود، وقد بدأت تنفد. وعمتي لم تعد تتحمل أعبائي الآن، وغالبًا. لا أطلب منها شيئًا، وأبي لا أعلم طريقه؛ أهو موجود أم مات، لماذا خلقه الله؟ كان من الأجدى، أن نُخلق من أبٍ أزلي، نعرفه منذ مولدنا، ونموت على إيمانٍ بحقيقته.

كان أبي بالنسبة لي، مجموعة من الصور الفوتوغرافية، تحتفظ بها عمتي في الدولاب منذ صغري. أجلس على حجرها وتحكى لي قصة كل صورة، وعندما تظهر صورة أمي، تصمتُ صمت القبور وتهز رأسها بأسى. لم أشعر بالحاجة إلى البحث عنها. فقد عوضني حنان عمتي عنها. أما أبي، فدائمًا ما كنت أفكر فيه، خاصةً مع كل حوالة بريدية مرسلة منه،

ومع كل غريبٍ يدق بابنا ويسلمنا الظرف المالي، فيتجدد الإحساس بقربه ويؤكد حقيقة وجوده، وحسن الظن به.

***

8

مرت الأيام والحال يزداد سوءًا

كلما انتهى أسبوع، تمنينا انتهاء موجة الركود وعودة الأسعار كما كانت، كما وعدونا مسبقًا بفترة من الرغد. لكن الوضع كان يعود بنا إلى الخلف، وكأننا بلد جديد يجرب أولى خطواته، ويتحسس بحذر كل ريبة، متوجسًا من كل شك، فاحصًا وطنيته ومدى إيمانه بالثورة، التي تحولت إلى صك يُقاس به مدى قرب انتمائه للنظام القائم. كنت في القهوة، اتأمل الجالسين حولي، فلمحتُ على الناصية ذا الأصابع المبتورة. يلتفت كأنه لم يرني. وقفت وناديت عليه، فدار على عقبيه نحوي، وكأنه تفاجأ برؤيتي. قال. أزيك يا عادل. حضنني وقبلني. قلت. أنت فين يا راجل.. قافل موبيلك ليه؟ مشغول يا عادل.. أنت عارف الحالة الزفت.. يوم حلو وعشرة زفت. قلت. صحيح كنت محتاج فلوس منك. فلوس إيه يا عادل.. ما أنت عارف. قلت. عارف إيه.. فين نصيبي؟ نصيبك محفوظ.. أنت عارف الظروف. قلت. أحنا مش اتفقنا كل حاجة تتقسم على أربعة. عايز الحق.. أنت عملت جناية وأحنا متفقناش على كده. قلت. كان غصب عني.. أديك شوفت. وبعدين أنت كنت رافض تيجي معانا من الأول. لكن جيت في الآخر. سيبنى أحاول أدبر لك أي مبلغ طيب.

طبعًا بعد المقابلة، غاب واختفى، ولم أره إلا بعد ما علم من لساني بعد ذلك، عن نيتي في فضح كل شيء، ونتكلبش كلنا في قضية القتل، إن

لم أحصل على حقي كاملًا. اتفقنا على اللقاء، نحن الأربعة، في المكان المعتاد تحت الجبل ليلاً. كان ذو الأصابع المبتورة يتكلم بالنيابة عن الآخرين. يردد نفس الأسطوانة التي سمعتها على القهوة، ويهز رأسه بعد نهاية كل جملة، ثم يلتفت إليهما ليؤكدان كلامه بهزّ رأسيهما. لقد اتفقوا أيضًا على الخطبة التي يلقيها عليّ بثقة وكنت متوقعًا لها، فلم ألتفت إلى أي كلمة تخرج منه، مع حركة رموش عينيه المستمرة، أراقبها في تزامن مع حركة مطواتي، عندما تحركت إلى جانبه، تشقه، تشق ذا الأصابع المبتورة، والعتمة تساعد حركتي. أمسكني الآخران، ووهنٌ يتصاعد في داخلي. جرحت أحدهما. فصرخ، بالمناسبة، لم يصرخ ذو الأصابع المبتورة عند طعنه، في الماضي كان يقول عبارته المفضلة (أنا ابن موت). كانت المفضلة لديه والمكررة دائمًا، وقد صدق. الرؤية تتذبذب، والخدر ينتشي بمعصمي، طعنت الثاني في حوضه، بدأ يحدث لي. شيئًا مختلفًا. قوة لا أعلم مصدرها، تدفع الوهن والعمى إلى رؤية مشوشة، صرخ الثالث صرخة مخنثة. في مرة قال له ذو الأصابع المبتورة. طيزك قطعت لي أطول صابع. ركض هاربًا، فأوقعته بطعنة في القفا، وسقطت فوقه. كان ذو الأصابع المبتورة يتشنج على الرمال، والثاني يزحف متوسلاً الرحمة. نظرت إليه، والأبيض يلطخ أصابعي. هناك تبة من الرمال. حفرت بيدي وردمت عليهما، وقبل كل ذلك. فتشت جيوبهما الخاوية. كنت أستعيد رؤيتي المعتادة، وكان ذو الصرخة المخنثة يحتضر، فحرصت على طعنه بنعومة، لأرى صدى ما يحدث. الأبيض ينتشي في داخلي. أراقب ما يحدث بعقل شبه واعٍ، شبه مخدر. هناك وعي آخر أدركه الآن، يفهم ما يحدث. هذا الوعي أنا في دخله ويقف على مسافة مني، يراقب عادل وهو ينهش بحيوانية الجثة المتبقية في بطء مثير. تنتابه حالة من اللذة وهو يراقب الأبيض.

9

كان هناك أحدٌ يتحدث بالنيابة عني، أو ربما كنتُ أتحدث إلى نفسي.

تبدلت الرؤية إلى صورةٍ ناصعة الوضوح. أتعرف الشاشة ذات خاصيةHD، والتي وقفنا سوياً، نشاهد صورتها من خارج فاترينة المحل، وكاد شلال الماء أن يغرقنا من وراء الزجاج. كنا نشاهد ونبتسم. بدأتُ أفهم بداية ولَعي بالقتل، والدماء تنهل برؤى في طهارة مطمئنة، وفي سبيل الفهم، بدأت الاطلاع على أفلام القتلة، ورؤيتهم بعقول الفن الكاذبة، المهتمة بالاستعراض التقني، فلكلِّ قاتلٍ سلاح مفضل، وضحية معيّنة، ونهاية مفتعلة، لا علاقة لها بالواقع، ولا بالإيمان الجوهري بالقتل، الفعل اللاإرادي الفوضوي، الذي لا دواء له إلا بالضحايا. أنا لا أقتل مثلهم، بل أقتل لغرض لم يفهمه أحدٌ غيري، طالما بحثت وحاولت التعبير عنه، لكنني الآن أفتقدُ القدرة على ذلك. أراه في اللون الأبيض على أصابعي، كأنه يتطهّر على يدي، ويكشف وجهًا آخر أكثر صدقًا، كالصورة المصقولة على سطح الكريستال، وعلى ذكر الصورة، بدأتُ ألاحظ على سطوح الزجاج بعض الأشكال المنعكسة الأخرى، والتي لا تُرى إلا عند اقتراب وجهك إليها والتحديق بها بالعين الأخرى، العين الخفية، البُعد الآخر للرؤية. هناك صورتان على سطح الزجاج. صورتي وصورة الآخر، الذي أتحدَّث إليه ويحكى لي، أو يحاول أن يُحدِّثني، ويُعبر عن ذاته فيّ.

***

10

استأجرتُ شقة تناسب مستجدات الأمور

كانت عمتي تحاول فهم ما أفكر فيه، لكن الصمت تكلم معي. لماذا لا نصمت إلى الأبد، ونتحدث بخلجات الوجه؟ نهز رؤوسنا وننكسها، ونحركها عوضًا عن الكلمات، نحرك عيوننا وأجفاننا، للتعبير عن المعنى؟ كنتُ أشك في الكلمات وما وراءها من معنى، وأشعر أن التعبير عنها بالحركة الجسدية يمنحها مدلولاً وجودياً أكثر عمقًا.

كانت الشقة في حي شعبي، فالأحياء تتشابه كالبشر. استأجرتُ شقة من حجرتين، وصالة متواضعة، وحمامٍ ومطبخٍ متجاورين. افتقدت صوتَ ماكينة عمتي المتواصل، ورائحةَ البن الفائحة من المحمصة في شارعنا. لم أكَوِّن صداقات كثيرة، فالصداقة لا تستمر. كنت أجلس أياماً في البيت، أنكبّ على الألواح بكل طاقتي. أخلق سريرا ودولاباً وترابيزة. يأخذني الخيال إلى محاولة فهم لغة الضوء، وعلاقته باللون الأبيض على أصابعي. أنظر إلى أصابعي بلونها المعتاد، وأسترجع لحظات القتل ورؤيتها باللون الأبيض. وصوت لمبة النيون المكتوم يئن، ثم أنظر إلى لون غراء الخشب الأبيض. أكُلُّ تلك المكونات لها رابط يجمعها؟

***

11

أكان ثامن أيام الأسبوع؟

كان الشارع معتمًا من المارة - الشارع الذي يبعد عن شقتي الجديدة شارِعان - وهناك دكان بقالة شبه مظلم، خافت الضوء كعادته. لا أعلم سببًا لذلك ولم أحاول أن أسأل صاحبه العجوز. الذي يسك بابه وقت الفجر ويصعد إلى بيته في الدور الأول، لينام وينتهي اليوم. كانت منه فتاة في عمر المراهقة. تدرس في الثانوية. أرها في وقت العصاري وفي أيام الإجازات، ثم تختفي وقت الامتحانات. تبادلنا استلطافًا عاطفيًا بريئًا.

كانت فور رؤيتي، تبتسم ونتكلم في راحة لا نعلم مصدرها. ينقطع الكلام بدخول زبون يطلب حاجته، وكثيراً ما كان العجوز الطيب. كنت أتعمد الذهاب إليها في أوقات وحدتها، لنتحدث ولو لدقائق ، بينما كان الخيال يؤجج إبداعات جنسية تقحمني عند رؤيتها. في هذا اليوم، وجدتها وعلى غير العادة. وقد انحسرت طرحتها عن شعر ناعم ذو جبهة بلورية. كان أمامها بنك خشبي فوقه بعض علب الحلوى والشوكولاتة، وعلى جانبها مبرد اللبن.

_ أزيك؟

_ أنت لسه سهران؟

_ راجع من الشغل.

عدَّلت الطرحة بكلتا يديها.

_ محدش بيشوفك؟

_ موجود..

العين والفم مثيران

_ عندكم حليب؟

تحركت بتلقائية ناحية المبرد، فتحت غطاءه وأمسكت كوباً معدنياً، ثم قلَّبت اللبن بسرعة، وبيدها الأخرى أمسكت كيساً شفافًا فاغراً.

_ طازة؟

_ تدوق؟ قالتها بعفوية هيجت إبرتي. اقتربت بجانبها. رفعت الكوب، مددت يدي فتجاهلتها، ثم قرّبت الكوب الذي تمسكه إلى فمي. انحنيت لها وعيناي في عينيها، فشربت، وهرب خط رفيع من طرف فمي، كان طعمه دسماً.

_ حلو؟

صمت.

_ وحيش! قالتها بدلالٍ مثير.

_ ده أحلى لبن دُقته في حياتي. ضحكت في ولعٍ آسر.

عكفت ليالِيَ متواصلة أستنمي عليها بلا هوادة. كان طيفها الأبيض يُحاصرني في كلِّ ركنٍ في الشقة. ثم جابهني السؤال. أهذا ما يُمارَس جنسًا؟ كنتُ أقف حائرًا، محاولاً إقناع نفسي بصحة الإجابة. الاكتفاء من المتعة هو غايةُ السمو، وما أدراكَ بكونه الإحساس الحقيقي للجنس؟ أنهى إحساسي بالهيجان، وكفى. وكيف كنتَ تشعر عند القتل؟ ماذا تقصد؟ الأبيض على أصابعك. ماذا تقصد؟ الانتشاء الأعمى. ماذا تقصد؟ الأبيض على أصابعك.

لم تُشبع الأيام رغبتي، ومع توالي الحديث بيننا. وجدت لساني يتحدث رغمًا عني، مُعبرًا لها عن أشواقي الخفية في قلبي، وعن رغبتي في رؤيتها على انفراد. كانت عيناها تسحباني إلى البوح والتعبير لها بأريحية. تقابلنا في وسط البلد وتشابكت أيدينا، وخطفت قبلةً على خدها. وعدتُها بالارتباط، والرغبةُ قد تأججت وأوشكت على الانفجار. جاءتني إلى الشقة ولم أتمالك نفسي فور إغلاق الباب علينا، كانت كلما تمنعت. زادتني طيشًا، وكلما لمستُها. تخففت رهبتُها. كانت خائفة وترتعش، وكنتُ هائجًا مرتعشًا. سيطرت عليّ رائحتُها، رائحةُ الفلِ الممزوج بالورد. كانت نبعًا من العطر الفوَّاح، بعينٍ مسدلةٍ وابتسامةٍ هائمة.

تلاحقت الليالي. وكان الجنس هو الوعي الآخر، الأقل شدَّة من القتل، الوعي الأقل شرودًا، والأخف اضطرابًا، وقد أدمنتني. عندما أغيب لأيام، تأتي إليّ، تطرق بابي، ثم تدخل إلى حضني وتسكن فيه.

لم أحبها، عرفتُ ذلك مع مضيِ الوقت، بل أحببتُ معرفة الجنس من بوابتها وتجريبَ إحساسه الواقعيِ الحسِّيّ. عرضَت عليّ الزواج، والأغرب من كل ذلك تصريحي بالموافقة! لم أكن في موقف يسمح بالتراجع. وافقتُ وهي في حضني. في تلك اللحظة بدت الفكرة خيّرةً ومريحةً لي؛ فكرة الاستقرار معها، لكن سرعان ما تبخّرت فور انفرادي بنفسي، ومع انتهاء تلك الليلة. كنت قد اقتنعت برفض فكرة الزواج. رغمَ موافقتي أمامها على الاقتراح، وكنت شارداً بدرجة لا تُقاوَم. كلما استعدت لحظات القتل، انتشيت بدرجة لا تُقاوَم، فاتخذت القرار ورتّبت كل شيء أثناء فترة الامتحانات. اخترت شقةً أخرى في مكانٍ بعيد، وسدّدت الإيجار المستحق، واستأجرت عربية ثم تركت تلك الشقة وأبدلت رقم هاتفي بآخر واختفيت عنها كأنني شبح. تخيّلت معالمَ وجهها النضر وهو يذبل، والصاعقة تنزل عليه أمام باب شقتي حين تكتشف هروبي منها بكل وقاحة الدنيا. دون أن أترك لها كلمةً واحدة. بلا سبيلٍ آخر، هربت كما هرب أبي من قبل، وجيناته تجري في داخلي، لكن الفارق الوحيد بيننا، رغبتي في رفض فكرة الزواج. أأتزوج ثم أخطئُ، فأنجب طفلاً لأهجره، كما فعل أبي من قبل؟ لقد عجّلتُ بالنهاية، لكنها أقل قسوة. ستدرك مع الوقت صواب اختياري، لمصلحتها ولحياتها بعد ذلك.

***

12

كان النسيان يذكّرني بها دائمًا

وأحيانًا تأتي في أحلامي، فيترادف المعنى السطحي للنسيان مع الذكرى، تباغتني على حين غرّة، فتبطل حقيقة النسيان. حقيقة قتل الذكرى ودفنها في مكان عميق بداخلنا، والحقيقة أنني لم أرغب في

نسيانها، بل وددت الاحتفاظ بها، وأحيانًا يَهِلُّ الحنين لرؤيتها، لتقبيلها. كان التحول في داخلي يتحرك، التحول إلى آخر يقف على بُعد خطوة مني وينظر إلى عادل. الذى يضاجعها. أراه ينظر إليها في صمت، ثم يتخذ قرار هروبه. كان التحول يسيطر عليّ، يقوى داخلي. يقوى على الحنين إليها. لا أعلم بعد كيف أسيطر عليه، حين تأتيني مشاهده من تلك الزاوية، بل إن حديثي مع عادل بدا كأنه حديث مع شخص آخر لا أعرفه، غريب عني، رغم أنني عادل بشحمه ولحمه!

كنت أحاول بقدر المستطاع، الهاء نفسي في شغل الورشة. ورغم جفاف الأعباء عليّ، فأنا أعمل باليومية وأتنقل بين الورش في ظل هذا الركود، فلا التزامات في التسليم، ولا أعباء تُثقل بالي، وحين يخف جيب نقودي، أزور عمتي، التي لا يخفى عنها شيء، فتحدس من رؤية وجهي وتقول لي. أنت لا تأتي يا ولد لي إلا عند حاجتك.. طب تعالى على طول.. واقعد معايا.. ولا زهقت مني. أحتضنها، وأود أن أقول لها. لا أعرف ماذا أريد وكنتُ أفضّل ألا أتركها أبدًا. تمسك بنقود مطوية وتحشرها في جيبي، فأحاول أن أمنعها بكلامٍ ظاهره الكذب وباطنه التمني، علّها تزيد المبلغ إلى الضعف. لكنها لا تبخل عليّ أبدًا، مهما كانت الظروف.

وفي هذا اليوم، بدأتُ ألمح هذا الآخر!

***

13

كان يومًا ضبابيًا

في هذا الصباح. عندما أسدلت دُلفتَي شيش الشباك. دلف الدخان. يبدو كرماد الحريق في كثافته، فطَلَلتُ إلى الخارج لأرى مصدره. تهيأ لى

أنه دخان كثيف يخرج من فوهة مدخنة. وبرغم حداثة إقامتي، أعلم يقينًا بعدم وجود مطعم أسفل البناية، رغم أنني في الطابق الخامس البعيد عن الأرضي، مددتُ جِذعي محاولاً اختراق الضباب ببصري. كان كثيفًا بلا رائحة، إلى حدِّ اختفاء أيَ مَعْلم خارج النافذة. لقد اختفت البلكونة المقابلة، والشارع من تحتي. تركت النافذة وتحركت إلى الشرفة. من وراء الزجاج، لم أرَ شيئًا أيضًا سوى الرماد. تبدو كشبورة كثيفة تخفي وراءها ملامح الألفة المعتادة، وعندما عدت إلى الحجرة. كان الضباب قد انتشر وتكثف، وأخفى المقعد الخشبي المجاور للدولاب. لقد تركتُ النافذة مُصْرَعَةً ليلةَ أمس، فأغلقتها على الفور مندهشًا مما يحدث. تحركت إلى الصالة، وجلست على الكنبة، وأخرجت سيجارةً، فأشعلتها. إن كان هذا حلمًا، وأنا أدرك الآن أنه حلم، فمن الطبيعي أن أستيقظ الآن وينتهي، أو أن أستمر فيه رغم معرفتي المسبقة بأنه ليس حلماً ! رغم ما فيه من غرابة بكل تأكيد، والسيجارة في يدي تشهد على الحقيقة، والدليل إحساسي بحرارة نقطتها الحمراء المشتعلة، وفي تلك اللحظة. خطر في بالي أن أتأكد من كونه واقعًا عبر إغماضِ عيني للحظة، لثوانٍ معدودة. غفوت فعلاً، ثم وجدت نفسي جالسًا في مكاني على الكنبة، والسيجارة متآكلة بين أصابعي وقد انطفأت، بينما تناثرت بقايا الرماد على الأرضية. تحركت إلى الحجرة ونظرت إلى النافذة. لا شيء. اختفت الشبورة، وعادت البنايات في الخارج، و عاد الشارع إلى صخبه المعتاد. فتحت قنوات الأخبار. ولا خبر يُذكر عمّا رأيت. كنتُ أحلم. هكذا تهيأ لي. ارتديت ملابسي ونزلت إلى قهوة بلدي، عرفتها في الشارع، ودائمًا ما أبحث عنها كلما وطئت أرضًا جديدة أو منطقة غريبة عني لا أعرفها. فيها تتعرّف على الشخص الأول، وهو نادلها، ثم تتوالد طاقة التواصل الأولية بينكما، لتتفرّع لاحقًا إلى

طاقات أخرى تمتد إلى الجالسين حولك، فتشاركهم في أحاديثهم المتفرقة، من الشائعات إلى مستجدات الأحوال. لم أجد أحداً يتحدّث عن الشبورة أو عمّا رأيت، بل كان الطقس، رغم برودته. مشمساً، والجميع يجلس مستمتعاً بضيائه الأبيض الدافئ، ثم كيف أنام والسيجارة مشتعلة في يدي، ولم تتركها أصابعي؟ وإن كنتُ قد غفوتُ فعلياً، فكيف لم تفلت من يدي!

أنهيت مشروبي وتمشّيت حتى أخذتني قدماي إلى منطقة وسط البلد. أحسست بالتعب قليلاً، مع ألم بسيط في كعب قدمي اليسرى، فتوقفت، لأجد من ورائي دار سينما. لم ألاحظها إلا عندما كنتُ أراقب شاباً يمسك يد فتاة، ويضحكان بسعادة زاعقة وملفتة، نظرت إلى لوحة العرض وإلى اسم الفيلم الأجنبي المكتوب بالإنجليزية. الغريب أنني لم أدخل سينما من قبل. لم أجربها. ماذا يفعلون داخلها؟ التلفزيون يسهّل لنا الرؤية، لماذا ندفع النقود، بينما الشاشة الأخرى بلا مقابل؟ فتحت محفظة النقود وأخرجت ثمن التذكرة، متحسراً عن ما أفعله بنفسي، فثمن التذكرة يعني التضحية بوجبة طعام كاملة.

عندما دخلت القاعة الهائلة وخبا الظلام وارتفع الصوت قليلاً شعرتُ برهبة طفيفة ذكّرتني برهبة تجربة ركوب الدراجة لأول مرة، والخوف من السقوط. كنتُ أشدّ بيدي على مسند المقعد، وكأنني سأنكبّ من مكاني وأنقلب إلى الخلف. الترجمة المتلاحقة السريعة على الشاشة تختفي كلما حاولت تهجّي الكلمات، لتأتي غيرها على الفور، وهكذا حتى شعرت بالإرهاق. فتابعت المشاهد المتلاحقة في محاولة لفهم ما يحدث، ويتكلم عنه الممثلون، محاولاً تخمين ما يقولونه، لكنني تعبت. وبدأت أعنّف نفسي على إهدار النقود لمجرد تجربة شيء مملّ كهذا،

صوته مجسّم ومزعج. فحاولت أن أراقب وجوه الجالسين. لم تكن القاعة ممتلئة، بل رؤوس متناثرة هنا وهناك. ثم لمحتُها. كانت جالسة في الصف المجاور. يفصلنا الممر المنحدر إلى الأسفل. لمحت وجهها عندما كَساه اللون الأبيض في مشهد نهاريّ. رجعت برأسي إلى الخلف، أسنده محاولاً النظر إليها بطرف عيني. لاحظت أن ملامحها قريبة الشبه من بطلة الفيلم، وحين حاولت التدقيق، كان المشهد يتبدّل إلى مشهد ليلي، فتخفت الإضاءة وتختفي الملامح، فانتظرت المشهد القادم. كانت معها رفقة، لم أستطع تمييز إن كان شاباً أم فتاة. ثم توالت المشاهد، مما أكد لي مدى تماثل معالم الوجه. لم يدرِ سكان القاعة بوجود بطلة الفيلم بينهم، ولم يدرِ أحدٌ مدى سعادتي لجهل جمهور العرض بذلك. لم تكن سعادتي نابعةً من مجرد وجودها بجانبي، ولا من الشبه العظيم بينهما، بل نبعت من خصوصية إدراكي لهذا الشبه.

ومن شاشة العرض، وعلى هيئة حبيبات سابحة في الضوء الشفاف المنبعث من الأعلى، من فوقنا، من سماء القاعة، انعكس الأبيض على الافتراض في شاشة العرض ليصبح واقعًا في صالة العرض. ما كنتُ أتخيله قد حدث؛ لقد خرجت من الشاشة إلى القاعة وتجسدت. كانت الشاشة هي السطح الملائم لرؤيتي لهذا الشعاع الصادر المنعكس، الذي تخرج منه الأرواح إلى الحياة. لم أتمالك نفسي انتظارًا لعودة الإضاءة الكلية للقاعة لرؤيتها. أُطفئت الشاشة وظهرت كلمة استراحة. فوقف البعض وتحرك آخرون وكانت هي معهم، فتحركت بدوري خلفهم. وقفت تشعل سيجارة، فاقتربت منها وأشعلت واحدة بدوري. علّقت ببضع كلمات عن مدى رداءة الفيلم، فحركت رأسها بلا تعبير واضح. لم أتمكن من رؤيتها جيدًا إلا من الزاوية الجانبية، لم تكمل سيجارتها حتى النهاية، سرعان ما عادت إلى القاعة، واستمر الفيلم حتى أسدلت الشاشة ستارها

على المشاهد الأخيرة. التفتُّ إليها، لكنها لاحظت نظراتي المتفحصة. كان معها أصدقاء. وما إن انتهى العرض حتى خرجت إلى الشارع، لتختفي فجأة. كما لو أنها كانت جزءاً من الفيلم نفسه. عندما عدت إلى البيت. ظلّت صورتها عالقة في ذهني، كما لو أنها جزء من فكرة أكبر، أبحث عنها دون وعي. الضوء الأبيض الذي يحوّل المادة إلى روح، الضوء الخالق للأشياء.. كيف لي أن أتأكد من حقيقة خلو مقعدها؟ وفور خروج ذلك الضوء، كسا الجسد وشكّل الفتاة، فأبصرتها. هل كان خيالي يتلاعب بي، أم أن عقلي يحاول منحها وجودًا مستعارًا في عالمي؟

شعرتُ بالجوع، فنادَت عليّ ثلاثُ بيضات لأكسرها وآكلها. وعند وضع الطبق على المائدة في حجرتي، لم أرَ المقعدَ الخشبي المجاورَ للدولاب، فخرجت أبحثُ عنه في الشقة، ولم أجده. أين ذهب؟ لم أحركه من مكانه، وهو الوحيد الذي أستخدمه عند الأكل. جلست على السرير، وقربت الطاولة، والسؤال يلحّ في رأسي. أللشبورة الرمادية علاقةٌ بالأمر؟

***

14

كنت أعمل بلا وعي.

طُلبتُ في الورشة لإنجاز بعض الأعمال المطلوبة. كنت أتحرك كالروبوت. أنفّذ ما يُطلَب مني دون مناقشة، فأقضي الأيامَ بيد تعمل وذهنٍ يتفكك تفكيراً. كانت المعجزة تفوق تصوّري. لم أتوقع رؤيتَها بهذا القرب، ولا بهذه الخصوصية، ولم تخطر على بالي فكرةُ انعكاسِ الضوء بهذا الشكل، وفعاليةُ الانعكاسِ على الروح.

قال عم حسن، وهو زميل مقرّب لصاحب الورشة. لا أؤمن بالمعجزات يا عادل.. وكل شيء له تفسير. حتى وإن رأيتها بعيني. وحتى وإن رأيتها بعينك.. تصدّق بالله.. عصر المعجزات انتهى خلاص. لم أحك له بالطبع عمّا رأيت، كنا في دردشة عامة أثناء فترات الراحة من العمل. وفي مرة، قارعه أحد السلفيين ورمى عليه كلامه بشبهة عدمِ المصداقية، لأنه لا يُصلّي، وكانت حقيقةً لا يُخفيها عن أحد، فردّ على السلفي، بما أنه يُصلّي ويعرف عن دينه حق المعرفة، بخمسة أسئلة. لم يستطع السلفي الإجابة عنها، وتعلَّل بأنَّ عم حسن يسأل أسئلةَ تشكيكٍ وشكٍّ في الدين، لِيداري خيبته في ترك الصلاة عن عمد.

كنت أتحدَّث معه لأفهم. قال لي عم حسن. شوف.. كل واحد يرى في حياته معجزةً يؤمن بها.. وكل واحد بيتخيل أنه الوحيد الذي رآها.. والمعجزاتُ مرميّة على الأرصفة أمام المارّة.. وهي تختلف عن معجزات الأنبياء.. لكنها دليلٌ حيّ على وجودنا. لقد رأيتُ معجزةً يا عم حسن. لا تفصح عنها لأحد.. احتفظ بها لنفسك. ليه؟ اتبعها إلى النهاية.

***

15

كان يومًا تجمّعت فيه كلُّ مشاعر الحنين المختزنة داخلي

إلى عمّتي، إلى الفتاة التي أحبَتني. كنتُ أراهن على الزمن وحده ليطحن ضعفي، يفتّته، ويعيده إلى الحياة بصورة أخرى، كان يتوارى تحت التبن. يتأجّج في الخفاء، ويتفاعل مع هدوئي الظاهري، مواصلاً عملية خداعه السطحي، مطمئنًا قلبي، ومنتشرًا مغذّيًا شعوري بالقوة -التي، عند لحظة الحزن، تتبدَّد هشَّة- فتخرج من باطني، وتعيد مخزون الذكريات في صورةٍ أكثر تطوّرًا وأكثر حنينًا. لكن، مع مشهديّة

السعادة المخبّأة في ثنايا الأمل، التي تجبرني على إعادة الأوضاع إلى طبيعتها الأولى، يضربني الضعف بلا هوادة، وتكون لحظته المناسبة، ليحرك جسدي إلى المكان الذي هجرته من قبل.

اقتربت من المحل، فلمحت العجوز بحركته الدؤوبة الهادئة، وكرّرت الزيارة مرارًا، لكنني لم أجد الفتاة، فجرّبت الحديث معه. في إحدى المرات، طلبت بعض الأشياء منه. الحساب كام؟ خمسون جنيهًا. أتفضل يا حج. خلى عنك خالص. تسلم يا حج.. اتفضل. ناولته النقود وقلت. مش كان في بنوتة بتوقف معك هنا؟ سكت واربَدَّ وجهه، كان ليكم حساب قديم عندي. نظر في وجهي بثبات، فحافظتُ على برودتي. أنا مش فاكر.. كان كام بالظبط. نظر إليّ وقال. أنت اللي فاكره.. ادفعه يا ابني.. إحنا مسامحين. ممكن نسألها.. هي فاكرة كويس الحساب. هزّ رأسه، وأشاح بوجهه إلى الزاوية الخارجية من المحل وصمت قليلاً. ثم قال. أماني تعيش أنت. وكأنَّ سطلاً من الثلج نزل فوقي. أسلوب إخراجه للكلمات كسر شيئًا في داخلي، خلال ثوانِ الصمت بدأ التحوّل. كانت لحظة الكراهية -التي نسيتها من زمنٍ مضى- تصعد إلى السطح؛ لحظة طعناتي المستمرّة في ممرّ المدرسة، لحظة لمس دمائه الدافئة، لحظة نسيتها واستعدتها الآن، لحظة ترك جسد عادل ورؤيته من البعد الآخر.

مش فاكر يا ابني.. حسابك كان كام.. ساكت ليه.. قضاء الله.. قُل الله يرحمها. كان العجوز ثابتًا في كلماته، يبدو شاحبًا رغم صمتي. أخرجت المحفظة وأعطيته مالاً لم أعدّه. كان الذنب يُطلي لونًا أحمر على عينيّ. تماسكتُ بكل قوتي وقلت. أنا مُدرّس عندها في المعهد وكنت مسافر وبشترى حاجات من عندكم.. كان في واحدة صاحبتها قريبة منها. توقفتُ عن الكلام محاولاً تذكُّر اسم صاحبتها، كانت قد حكت لي

عنها من قبل، صديقة مقرّبة لها. إسراء.. حضرتك تقصدها. أيوه هي دي.. معاك يا حج نمرة هاتفها. لا أعرف ماذا يفعل بي التحول، الآن أراقب عادل وهو يحاول أن يُخرج صوته الشاحب للعجوز. أنا مَعرِفش يا ابني.. استنى. تحرك واختفى إلى داخل ركن، وأمسك هاتفًا محمولاً. هو هاتفها.. ابحث عن الاسم كده.. أنا لا أفهم فِيه. أمسكتُ الهاتف وسجّلت الرقم وشكرت العجوز دون حتى أن أعزِيه.

***

16

عندما حاولتُ رؤيتها من قبل

ولم أجدها. بدأت أشك وأرى من غيابها. لقد راقبت الشقة التي تعلو المحل، فتنبأت باحتمالات عديدة إلا الموت. كنتُ أتمنى رؤيتها. ألمس شفاهها بيدي، لم أتخيل حقيقة العدم لها. أيكذب العجوز عليّ، وهل يعرفني؟ ليس شرطًا لذلك، أيكون قد ادَّعى موتها أمام الناس. ولمَ كل هذا؟ ملامحه وذبول كلماته، تعنى كل معنى. من الممكن أن تكون قد هربت منه، هربت إلى أين؟ إلى العالم الآخر. تلك هي الحقيقة ويجب أن تقبلها.

أخرجت الهاتف وطلبت رقم إسراء، وجاء صوتٌ طفوليّ يخاطبني. تكلمت معها، وفور معرفتها باسمي، سكتت، فعرفت أن شيئًا ما قد حدث، غالبًا يرتبط بي. حاولت الادِّعاء بلهجة كاذبة، بقدر عمرها ، مستندًا إلى قضاء الله (أين هو؟ وقد اختفى بين الموجودات، كقضاء أبي تمامًا). ما علينا، هددتُها بفضحها. فسكتتْ، متفاجئةً من لهجتي الحادة، الزاعقة، الشاتمة لها، ببنت الشرموطة، والحقيقة أنني لا أعرف بماذا كنتُ سأفضحها؟ الانفعال الآن وليد اللحظة والتحوّل صار كاملاً. ترجّتني

برجاء وتمنٍّ، وبحلفان بحياة أماني ألَّا أخبر أحدًا، لأنها أوصت بذلك. أمانى كانت حاملاً منك وكانت عايزة تبلغك بأي طريقة.. أنت عزلت ومشيت ولحد آخر لحظة كانت عايزة تقولك.. ومكنتش عايزة تضحى به.. عشان كانت بتحبك.. وكانت مستعدة تهرب معاك.. وتعيش في أي مكان.. كانت بتقولي مش كان يقولي.. إنه هيهرب عشان أحضر شنطتي وأهرب معه .. مكنش في حل إلا أنها تسقط نفسها عند دكتور وكنت خايفة عليها لأنها دخلت الفترة الخطرة وحاولت أمنعها.. كل اللي كان عليها وقتها.. أوعى ابويا يعرف.. أوعى حتى لو حصل لي حاجة.. أوعى تبلغيه.. زي ما يكون قلبها حاسس المسكينة.. وكتمنا على سبب الوفاة مع الدكتور.. عشان الفضحية.. المسكينة الله يرحمها. أدينى عنوان الدكتور. دوّنتُ العنوان، وكان في منطقة شعبية، تمشى فيها بين الدروب الضيقة والبيوت المتلاصقة، لتصل إليه. شقةٌ خانقة، تملؤها العتمة، وتخنقها رائحةُ بولٍ كابسة. كنتُ قد تحوّلت أخيرًا. شعورٌ باللاوعي لازمني منذ اللحظة التي خرجت فيها الحروف من فم العجوز (تعيش أنت) وقف الطبيب أمامي مرتديًا زيّه الأبيض، وسألني: ماذا تريد؟ أريد أن أرسلك إلى العالم الآخر. ثباتُ يدي في إخماد المطواة، وثبات النصلِ المتحركَ في داخله، ثم بطءَ حركتي مع التخدُّر الطفيف في يدي، المتحولَة إلى أداة أكثرَ ثباتًا وأقلَّ عمًى. ثم سمعت صوتًا مكتومًا من ورائي. كانت الممرضةُ تُبحلق، فأسكتَّها للأبد كي تتعلَّم درسًا في لحظتها الأخيرة، كاد أن ينقذها. لا تُقحمي أنفك فيما لا يعنيك. المعرفةُ مُكلفة، وقد كَلَّفَتك حياتك. أنتظرَ أن يدخل أحدٌ آخرَ الحجرة. مسحت مطواتي، وغسلت يدي في حوضٍ أصفرَ متَّسخ. كنتُ أكثرَ انفعالاً وأقلَّ هدوءا. خرجتُ إلى الشارع، مطمئنًّا.

17

من هنا دلفتُ إلى البُعد الآخر

البُعد الذي يترك الجسدَ في بُقعته الأرضية، ليتحرّكَ بحرية. تنبسط الأشياء وتنسكب الصعوبات. والتصور يقترب من صفاء الذهن والقدرة على إتيانِ الوهمِ والحقيقة، الوجهة والخلفية. يدايَ كانتا مُلطَّختينِ بالأبيض الممتد حتى المرفق، وكان التحوّل مرئيًا؛ أراه بعيني، البَقَع البيضاء الموشومة على جسدي في فوضى مشتتة. عندما عدت إلى البيت وارتميت على الفراش، لم ألحظْ بعد عودةَ المقعد إلى مكانه؛ كنت مأخوذًا بمراقبة التحوُّل. نمت وحَلمت، ولم أتذكر ما حَلمت به، وعندما صَحوت ونَظرت بعَين ثقيلة إلى الأبيض، وجدته قد بَرَزَ في العروقِ النافرة من جسدي. وقفت أمام المرآة، وبعين أحاول أن أوسعَها إلى أبعد مَدار، تابعت الخطوطَ بأصابعي. لم تكن بارزةً عن قُرب، لكنها تبدو بارزةً من بُعد. عندما جلست وشربت الشاي، لم أرَ بعد، ما أجلس عليه. المقعدُ الخشبي. أكان موجودًا ولكني لم أرَه، أكان في بُقعته ساكنًا بينما أتحرّك وأدور حولَه، دون أن أراه، أم يَتحرّك فور بُعد عينيَ عنه، وبمجرد الالتفاف إليه يسكن مكانَه، لقد صنعته بيديّ، فكيف يعصي أمري ويختفي؟

لقد خلقت كلَّ هذا الأثاث في الشقة؛ السرير. الترابيزة. المقعد، وفي الصالة الكنبة والمقعدان المنبسطان. ثم رفعت السقفَ، الذي كانَ متآكلاً، ودَهَنتُه. بعد ذلك أصلحت كالونَ الشقة الرئيسي وأمَّنته. كان هذا عالمي. أرضي الصغيرة. أيكون لتلك الشبورة أو الدخان علاقة باختفائه عني؟

بعدها بأيام، وآياتُ التحوَّل كحفيف رياحِ الخريف. كان الآخر يمشي بجانبي. كنا اثنين نسير، أنا وعادل، وعلى بُعد خطوة منه. أراه يمشي على هُدًى. وصلت إلى ورشة النجارة لأداء بعض المهام. كانت توجد في الأعلى. سندرة لتخزين بعض المواد وبقايا الخشبِ المتبقي من عمليات تسليمِ الشغلِ لأصحابه، وكانت هناك بَستلة من الغراء الأبيض السائل المستخدمِ في الخشب. كنا ندلق في داخلها باستمرار بقايا الغراء المتبقي، منعًا للهدر. وأثناءَ العمل، كنتُ قريباً من السندرة المفتوحة علينا من الأعلى، وفجأةً رأيت منسوباً من الأبيض، الغراء الأبيض ينسكب من الأعلى، لتزكمني رائحتُه الطينية المزوجةِ برائحة لحاء الأشجار. المادة البيضاء المدلوقة شكّلتْ شلالاً قزمًا، يحفرَ طريقَه من الأعلى، وينسكب بتثاقلٍ موجي متعرّجٍ على الأرضية، أشار الآخر إليهم وقال. أحضروا جردلاً بسرعة. كانت المادة مازالت تفوح برائحة مألوفة من قبل، وكأننا استغرقنا في مشهد مفاجئٍ، رغم فداحته، كان منظراً بديعًا لم أره من قبل؛ مشهد انسكابِ النهرِ الأبيضِ من السماء.

***

18

الوجود يدور فينا.. الوجود يدور في داخلنا

بدأت أرى الوجود بمنظورٍ مختلف. وجود ومنظور! حتى بدأتْ كلماتي تتغير، وتأخذ نمطًا كلاميّا مختلفًا عنِ شخصيتي. كنا اثنين. أنا وعادل أو عادل والآخر، وكما حاولت شرحَ ما يحدث، في محاولة، لتقريبِ منظورٍ ذاتي إلى نفسي . كنت أراه يمشي ويسبقني دائمًا بخطوة، لا أعلم تحديدًا. من يسبق في الرؤية؟ وحين أقف، أرى عادل يتكلم بينما أراقب هذا الآخر وهو يتحرك؟ كان التحوّل يفرض قوانينَه الخاصَّةَ

عليّ، هناك قواعد تتغير دائمًا. وقوفُكَ في ورشة النجارة، مُساعدًا يختلف عن وقوفكَ بائعًا، ويختلف عن وقوفك زبونًا. هناك قواعد من المتغيرات تتبدل باستمرارٍ ولها قوانينها، قواعد القواعد تُحكم بقواعد متوالية لا نهائيّة من البنود المتغيرة حسب كل موقف، وحسب كل بداية من الافتراضات الدورية، وكلما استمرت دورة الأرض حول الشمس، وواصلت المجرة دورانَها حول الأرض، كلما تراكمت الاحتمالات وازدات الاختيارات، وتحولنا إلى آخرين مختلفين متماثلين.

عربة المترو قذفتني ككائنٍ منويٍ يعرف طريقه، وكنا كالعادة اثنين. أنا وأمامي عادل، من الجيد أن ترى ملامحك بهذا الوضوح، وتتأمل وضعية جلوسك، وتتابعَ حركة ركبتيك، وتحرك جوهرة عينك مع حركة مصابيح الإنارة خارج العربة، وأن تتواجد ليلاً في عربة شبه خالية إلا من سيدة عجوز وامرأة شابة، وكنا نحن الأربعة (إن جازَ لنا أن نحسبَ الآخرَ أو عادل) نجلس متقاربين كآلهة، كعادة مصرية أصيلة، فالتصاق الأفراد المتناثرينَ في بقعة واحدة على الخريطة، وعلى المقاهي، وفي كل مكان، مشهدٌ مألوفٌ. حينَ تقف أمام شُبّاك تذاكرِ السينما، وترى المقاعد الخاليةَ على شاشة المونيتور، ستجد نفسك بجوار أحد الغرباء، رغم فضاء القاعة! كلها أسباب منطقية، لمغناطيسية التجاور، التي تؤدى إلى تبادل أطراف الحديث كما حدث، لتخفيف حدة الاغتراب، رغم دقائق الرحلة المستغرقة في أحلام هزلية، فالسيدة العجوز بدأت بالفعلِ بالسؤال عن المحطة التي تريد النزول إليها، لأننا نركب خطًّا جديدًا ما زالَ في طور التجريب، كانت معلوماتنا متضاربة، فتبادلنا العون ومنه الحديث إلى الشابة، التي كانت متحفظة في البداية، لكن وجودَ العجوزِ كانَ بمثابة صمَّام الأمانِ والطُّمأنينة لها، فقرّرت المشاركةَ في الحديث واندهشت من الآخر وقدرته على الحديث بهذا الشكل، ومن صمت

عادل المعتاد تجاهَ أيَ انطباع عنه، فالصمت عدو للمعرفة، بينما الآخر يتكلَّم ويترك لها طريقًا ممهَّدًا. وعندما نزلت العجوزُ تركتْنا نكمل كلامنا. عرفتها على نفسي فقط، تاركًا لعادل المشاهدة بحسرة وتمنٍّ لفعل ما أقول وما أنطق. طبعًا، بالغت في وصف ذاتي، بادِّعاء امتلاكي ورشة للنجارة، وعلى سبيل التفخيم، زعمت أنَّني مهندس ديكور، لا مجرد نجّارٍ فحسب، بل أمارس النجارة كفرع من عملي. التواء التنين. المعتاد فينا هو الخجل من بعض الكلمات، ثم صبغُها بأخرى، وإعادة طرحها ونطقها في صورة جديدة لامعة، فكلمة نجار تُوحي، كصفة انطباعيّة، بمجرّد صَنائعيٍ، إذ تُرسم واجهتُها في الذهنِ كصورة شخص خارجٍ من فم منجم، مُتربًا بنشارة الخشب، أما كلمة مهندس تعنى الرجل المرتدي للجينز والقميص المكوي، فتُعطي انطباعًا مرسومًا لشخص مُتأنِّقٍ بفخر وتأكيد. كانت تعمل في شركة. تُضطَرّ للعودة منها ليلاً. تكلمنا، وتبادلنا أرقام الهواتف، على سبيل أن تكونَ وسيلةً للتواصلِ إن احتاجت إلى أيِّ شيء يتعلق بالنجارة، فأكون موجودًا. وهاتفتني بعدها بأيام قليلة، وأخذت تتكلم دون رادع وانكباب، بانهمارٍ جعل اهتمامي يخبو وتركيزي يتناقص، خاصَّةً مع تشتُّت صوتها بفعل ضعف شبكة الاتِّصال. كانت تسقط منها كلمات، واثقًا بسطحيّة ما تحمله من أهمية، ومنِ تكرارها على امتداد الجمل المتتالية. أعطتني عنوانها، لفحص أشياء تحتاج إلى صيانة، وعندها، رأيت طفلاً يفتح لي باب الشقة. اندهشت قليلاً، إذ كنت أتوقع رؤيتها وحيدة في البيت، ورغم أنها حكت عن مواضيع عديدة، إلا أنها لم تذكر ابنها، وبالطبع دخلنا معًا إلى المنزل. أنا وعادل أو عادل والآخر. لا يهم التوصيف الآن، وبالطبع، جلس عادل مع الطفل في الصالة، بينما وقفت أنا وهي مع زوجها ذو العينِ الباهتة في صمت، تاركةً لها دفة الحديث والطلبات. كانت تريد سريرا جديدًا بدلاً

من هذا القديم الراقد كزوجها، وعلبة من الخشب في المطبخ. دونت المقاسات وحسبت الحسبة، وطبعًا تولت أيضًا عملية الفصال على السعر بعين بارقة. كانت تحاول بها فرض واقعٍ تريده، وقد أحسستُ به في الهاتف والآن تؤكده أمامي، وكعادة الصنيعي المعتادة، هولت لها الأمر تهويلاً من حيث الإرهاق والتعب واستغراق الوقت، لمحاولة كبح التعجيل الزمني بمهمتي، ومن كَمِّ الطَّلبات الأخرى المفروضة عليّ من زبائنَ آخرينَ (وهميين بالضرورة). وطبعًا، كله كلام لا صحة له، لكنها عادتنا الأبدية في صنع هالة حولنا، لإعطائنا مزيدًا من الوقت، وليس الوقت لكي ننجز فيه ما يطلب منا. لا، بل الوقت لأجل تضييع الوقت بقدر الإمكان، ولتحسيس العميل بمدى المعاناة. ولتخفيف نبرة عملية الفصال المرهقة لنا، أعرف زملاء في الكار. من الممكن أن تعرض عليه مصلحة مفيدة ورابحة ومع ذلك يرفضها! لماذا؟ لأنه يملكُ من النقود الآن في جيبه ما يكفيه لمدة طيبة. لماذا يشغل باله بالعمل المتواصل، والأرزاق على الله، وكلُّ شيء مكتوبٌ، ولا أحدَ ينامُ دونَ عشاء؟ أعطيت لنفسي مهلة شهرين، رغم أنها لا تستغرقُ أسبوعًا في يدي. وهاتفتني بعدَ أسابيع، وانكبت في الكلام من جديد. تعيد وتزيد وتلت وتعجن. كأنها استعدت لتلك الفرصة معي، وفي آخر المكالمة. طلبت منها جزءا من المبلغ، فلم تستنكر الطلب، بل وافقت، وأبدَتْ رغبتَها في رؤية ما انتهيت منه، وكنت قد انتهيت من الطلب كاملاً، لكنني كعادتي -كما شرحتُ من قبلُ- أوضحت لها أن المبلغ الذي سأخذه هو نظير، لاستكمال باقي الطلب كاملاً، وحين يأتي وقت التسليم في بيتها. آخذُ باقي حصتي من المبلغ المتبقي. طلبت الحضور إلى الورشة، لكني قلت لها إنَّ طلبها المنتهي عندي في البيت، وهو بالفعل في البيت. كنت قد وضبت الحجرة الأكبر مساحةً للنجارة، فوافقت وحضرت في اليوم التالي.

كانت ترتدى عباية سوداء فضفاضة من الأعلى، تضيق عند الخصر. إزيك يا ست الكل.. أتفضلي. دلفت، وابتسامة تشرق على الوجه ذي الملامح المخملية. لم تكن جميلةً، ولم تكن قبيحةً. أنت عايش لوحدك. أيوه. لسه متجوزتش. ربنا يبعت. كنت فكراك متجوز. وكنت فاكرك بنت بنود. أشرق وجهُها بسعادة على إطرائي، وعينها نارت بضياء خافت أعرفه من قبل. اتفضلي اقعدي.. تشربي شاي ولا قهوة؟ ولا أي حاجة.. أنا جية كده وماشية عالطول. هو ده ينفع.. ميصحش. دخلت إلى المطبخ وأحضرت كوبًا من الشاي .أنا قلت أن جوزك.. هيجي معاكي. جوزي.. اسكت يا مشمهندس.. بلاش السيرة دي والنبي. لم تكن تتكلم كعادتها على الهاتف، فقلت لها ذلك، فضحكت، فتحررت قليلاً، وحكت أنها العائل الحقيقى لبيتها، بينما هو مجرد موظف حكومي، لا يكفي راتبه سوى مصروف سجائره. كانت كلما تحدثت، تتفتح عيناها أكثر وتتسع. عينها كانت تسحبني، للحظة غصت في داخلها، في لحظة صمتنا، وبما أنني كنت أنا، وليس عادل، تركته محبوسًا في حجرته، فقد سكتت بدورها وشاركتني الغوص. وجدتها أحبت نظرتي لها. أنت بتعمل شاي زي الفل.. تسلم إيدك. حاولت أن تهرب من عيني، لكن الأبيضَ كان متركزًا في إغراء، وأحاول محاصرته بكل حواسي. عايز أفرجك على السرير. بجد.. وريني كده. تحركنا معًا إلى الحجرة، ودخلت أولاً وأضأتُ النيون، فأصدر صوته المعتاد المحبب. كان السرير منصوبًا ومدهونًا باللون الأبيض، خشبًا خامًا. الله.. الله ينور عليك يا مشمهندس. تحركت نحوه، وفلقست، بيدها لتتحسس المولل الخشبية، فجسدت عباءتها عن مؤخرة، دون لباس تحتها، يقطع الخط فيختفي. حركت يديها، ليترجرج الشحم معها. اقتربت منها، فالتفتت. عجبك. آه. ونظرت في عيني المبحلقتين. اقتربت من الفم وبحذر بوستها، فتملصت. أنتَ

بتعمل أيه يا مشمهندس.. إيه اللي أنت عملته ده؟. يدي مسحت على ظهرها ونزلت إلى الوادي المقدس. اقتربت منها، وقد هيجتني أكثر، فتملصت بقوة وابتعدت، ثم خرجت من الحجرة. أنا مش قادر.. من ساعة ما شُفتك وأنا عايز أنيكك. لا أعرف كيف خرجت تلك الكلمة الأخيرة! وقفت قليلاً، وظهرها لي. من ساعة ما شوفتك في المترو وأنا هموت وأتجوزِك.. تعرفي إنك بنت بنود.. إزاي تكوني متجوزة ومخلفة؟ كنت أحاول ترميم كلمتي الطائشة. وهي لاتزال متسمرة، فاقتربت والتصقت بها، وجسدي يعصرها ويرفع العباية، وأدخل بها كل شكوكي وجوارحي. كانت تشهق وتزفر، وعينها تضيء وتنطفئ. تحضنني، وتضمّ عليه، وأواصل الزحف. كانت ليلة هوجاء مفاجئة لي. لم أكن مستعدًا لها، ولمحت أثناء قذفي عادل يقف من وراء الباب، يراقبنا في حسرة، ويده على أسفله يداعبه ليستمنى. أنا اتأخرت على البيت. الجملة المعتادة المصرية الأصيلة. قبلتها في شغف. هشوفك تانى. إن شاء الله.

***

19

أغلقت مغاليق الخشب

وبمعنى أدق. تمت عملية حجز البضاعة عن السوق. كانت توقعات زيادة الدولار ما زالت مستمرة. هناك من باع كل ما يملك وحوله إلى الدولار، والسوق السوداء بدأت تنتشر بصورة عنكبوتية، وتدهورت البورصة، ودخل السوق في دوامة من الركود غير الطبيعي. كانت الإشاعات المتداولة عن أرباح الدولار تزيد من كسل الناس عن العمل. توقفت اتفاقات ورش النجارة مع العملاء، فمنهم ما أعاد العرابين المدفوعة مقدمًا، ومنهم من تدبس في الاتفاق ثم أوقف التسليم، إلا

مع دفع كل المستحق، ومنهم من خسر بعد الاتفاق وأرغم على تسليم الطلب مع خسارة نسبة من الربحية، ومع كل هذا الضجيج، جاءتني مكالمة من عمتي.

-ألو عادل.. إزيك يا حبيبي.. عندي لك مفاجأة.. أبوك عندي .

-هو موجود؟

-خد كلمه

-ألو يا عادل

-أنت موجود فعلاً؟

-أيوه موجود وبكرة أقابلك عند عمتك نتغدى سوا.

وأغلق الخط. وإن كان موجودًا، فلماذا غاب عني كل تلك السنين؟ انقطع مصروفه الشهري منذ كذا سنة. نسيته بالفعل. يا ترى، ما ملامحه الآن، أعجوزٌ بلحية بيضاء أم أصلعٍ كالصحراء؟ كان صوته رخيمًا له رنين كالصدى. في اليوم التالي، لامستني قشعريرةٌ كالنسمة أثناء صعودي إلى شقة عمتي. وصلت إلى الشقة. وضربت الجرس. هناك حركة بطيئة من وراء الباب. حركة عمتي تباطأت مع الكبر؛ أحيانًا لا تسمع الجرس وتكون نائمة. فتحت الباب. حضنتها بودٍّ، ورائحة النعناع تفوح منها. كان الوجه مُشرقًا بالحُبور. جلست. هو جه؟ لسه مجاش.. أنا حضرت غداء لينا كلنا عشان نتجمع زي زمان. حكت لي عن رؤيته خلال زيارته، لم تتمالك نفسها وبكت. سنون طويلة مضت، لكن ملامحه لم تتغير كثيرًا، وصوته ما زال كما هو. سألتني عن أحوالي وعن عملي. جلسنا نتحدث، والساعات تمضي من العصر إلى المغرب، ثم إلى أذان العشاء. هو شكله كده مش جاي؟ مش عارفة يا عادل.. يمكن حصلت له ظروف. هو عالطول مشغول كده عني ويظهر زي الظل ويختفي بعدها. طيب

هقوم أحضر لك الأكل. لا يا عمتي ..أنا قايم ماشي. استنى. هو مسبش نمرة تليفونه؟ لا يا ابني برغم أنه أخد رقمي عنده وسجله.. هو ساب لك مبلغ كده استنى. قامت تتحرك إلى حجرتها ولسان حالي يقول. وجوده زيٍ عدمه.. كل اللي بستفيده منه شوية الفلوس.. والوجود يتثبت دايماً بالمادة.

***

20

لم أرغب في الزواج

على أي حال.. كل حيَ بياخد نصيبه من الدنيا.. لم أرغب فعلاً في الزواج.. كنت في بيت أبويا معززة مكرمة.. أبويا شجعني على الشغل.. قال مش عيب وده سلاح للبنت.. كنت عايزة أتجوز عن حب مش مجرد جواز والسلام.. العمر لما يتقدم يرغمك على حاجات كتيرة.. تخليات.. تخلى عن الحب.. تخلى عن الحبيب.. هي واحدة صاحبتي، الوحيدة اللي قدرت تفلت وتجوز اللي بتحبه.. كانت بتحبه لفلوسه.. ده حب برضه.. الفلوس نعمة و تتحب وأنا عايزة أحب بصحيح.. محدش حبني. وأنا طيب. قلتها لصاحبة العباية السوداء في صدق. أنت حبيت جسمي. لا حبيتك أنتي. عشان جسمي ..أنا عارفة.. كتير حبوا جسمي.. من أول يوم جتلك فيه.. محدش بص في عيني كده.. أنا حبيت عينك. حسيت بده. قلتها في تأكيد .

تكلمنا في تلك الليلة، ولم أعلم أنها الأخيرة. الغريب كان، في يوم تسليم الطلب والتركيب في بيتهم. بدت شخصًا آخر لا أعرفه. الجدية المرسومة على الوجه، العين ليست العين والنظرة ليست النظرة. حاولت، ونحن بمفردنا أن ألمس يديها، فنظرت لي نظرة أربكتني، جعلت عادل

الجالس في الركن، يبتسم في تهكم. لم أفهمها هذا اليوم. التقينا مرات على فترات متفاوتة، ثم انقطعت زيارتها، تعجبت من مكالمة زوجها، يطلب مني الطلبية إن كنت قد انتهيت منها. اندهشت، ثم تأكدت حين رأيتها في ذلك اليوم. ماذا جرى لها؟ لا أعرف. حاولت مكالمتها إلى أن غيرت رقم هاتفها. ماذا فعلت لها وما الذي بدر مني؟ لا أعرف.

***

21

اختفى الأب، وماتت العذراء، و هجرتني امرأة.

كانت عبارة دينية، من ضمن عبارات كثيرة، لا معنى لها، تختزن في الخلايا، ثم تنفجر بها بطون الأمهات، لتخرج لنا كائنات حيةً تعبد الله على الفطرة أو على الفكرة. ولذا، مع اكتمال التحول. بدأت أشعر بشذرات منها، ولكن ليس على طريقة المهدى المنتظر أو النبي الجديد، برغم قناعتي بها. وقد حاول عم حسن أن يبسطها لي. كلنا نعبد الله.. هناك من يعبد الفكرة.. سواء كانت أو لم تكن.. إن خرج نبي.. سيتهم بالجنون وحب الشهرة.. كلنا نسمع عنهم في كل مكان.. دعوات الإيمان. قلت له في بالي. إيمانٌ بمن؟ بالجسدُ يا عم حسن، الجسدُ خُلق من الضياء الأبيض.

كان عادل يحاصرني بكتمانه وجهله، وعندما نزلت من الباص إلى ميدان الإسعاف، ومشيت مع قُطعان الخلق المستسلم في خضوع، بعد ثورتين أو صرختين ذهبتا بلا رجعة، ومعى عنوان زبون في شارع فرعي في وسط البلد، ومعى الوقت لأمشي على مهل بلا لهوجة. هناك تمثال في آخر الشارع. سألت أحد الشباب عن العنوان. فوصَفَه لي بكلِّ حماسة، وأنا بكل حماسة أشعر بكذبه. أكملت السير، وقد احتفظت

بورقة مطوية في جيبي، كتبتها ليلة أمس قبل النوم. لا أعلم تحديدًا كيف خطرت أفكارها على بالي، ثم طويتها في جيب بنطلوني في النهاية.

الشارع لا ينتهي، فكلما اقتربت من نهايته، أجده يتمدد إلى تقاطعات. شوارع منطقة وسط البلد متوازية. أقدار تتحرك من حولك وتتخبط بك، ومن فرط الهموم. تتخدر، لا تعتذر لك، بل تبادر أنت بهزِّ رأسك، لتمشي وتكمل طريقك.

المحالّ بها طاقات في بطونها. طاقات من بقايا البشر عبر الزمن. قنابل من السرد المخزن فيها، يحتفظ المكان بها، وكالعادة كان عادل يمشي بتمهُّل، ثم يقف بين كل الحينِ والآخر أمام فتارين المحلات، ويضع يده في جنبه، ويراقب الأسعار المكتوبة والمضروبة في ضعف قيمتها، تركته، ثم دخلت إلى شارع فرعي وكأنى ألفته من قبل. دكانة تبدو من الواجهة ومن اللافتة المعلقة، عتيقة الطراز. دخلت إليه، وعيون الحائط المربعة تحدق بي، عيون كائن أسطوري يحتفظ بوجوده في هذا المكان، يندهش من كائن آخر يجرب محاولة النظر إليه. نظر لي صاحبه. لم أجد عمالة فيه. مثل باقي المحالّ الأخرى. كان وحيدًا يقف ويستطلع بعينه عن طلبي. أريد لو سمحت جاكت. طلبك عندي. قالها في ثقة، وأشار لي على رف به واحد فقط!

وكان عادل يقف في الخارج يدخن سيجارة. نظر إليه الرجل، فنظرت له وقلت. إنه معي. ارتديت الجاكيت، فانطبق عليّ وكأنه مصنوع خصيصًا لجسدي. ده موديل إيطالي.. لن تجد زيه الآن.

كان هناك خياط إيطاليّ فقيرٌ يعيش مع زوجته في قرية نائية، وبدأ يأتيهُ أهل القرية، ليطرز لهم لباسًا، ليطمئنوا كما اطمأنت الآن في الوقت الحاضر، مات العجوز، وترك هذا الجاكيت تتناقله الأيدي إلى أنْ

وصل إلى مصر، ليأتي أحد القتلة، ويجرَبَهُ في ساعة نشوة وتحد. قلت له. ده سعره كام؟ ألف جنيه، ولم ينتظر تعليقي. خلعته وأجدني أخرج النقود المنبعجة من جيبي. خد مائتي جنية تحت الحساب.. لأنى مش عامل حسابي. تحت أمرك. كان عشقي للماضى في تلك اللحظة يفوق التصور. قلت له. والدك أعرفه من زمن. نظر لي وقد تفاجأ قليلاً، نظرا لصغر عمري، والذي يقاربه تقريبا. قلت له. لا تفكر في التخلي عن مهنتك. كان قصير القامة، فنظر بحدقتين تلاقتا مع الحاجبين. في الماضى، كان والده يقف في مكاني هذا، وعلى وجه التقريب، قال له كلمات تشبه عبارتي. لم يدر عندما تركته، أنى لن أعود إليه. كان دين لوالده، أرده له.

عندما خرجت من باب الدكانة ونظرت إلى المطعم المقابل على الناصية الأخرى، تهيأ لي وكأنَّهُ كان مكتبة قد تحولت إلى مطعم. لم أحاول شحن الذاكرة بتضاريس المحالّ. تركت قدمي تمشي على ذاكرة العين والصورة. هناك في آخر الشارع، يقفُ تمثالُ طلعت حرب مُرتفعًا في وسط دائرة تُحيطُ بها خمسُ تقاطعات، هو دليلي الحتمي للسير في تلك المنطقة. اقتربت من أحدهم، كان يراقب مؤخرات السائحات الشمطاوات، لأساله، قال. هدي شعراوي.. هتمشي عالطول وتكسر شمال.. أول فتحة. كان صادقًا ليس لأني شعرت بذلك، بل لأني أتيت من قبل. الشارع يبدو مألوفًا. الأشجار المتناثرة تتكون، تتشكل على جانبي الطريق. يتهيأ لي، في نهايته، لوح من العدم يتكوّن، وكلما أسرعت خطوة، يبدأ العالم في التشكل، ويبدأ العدم في التراجع إلى الخلف خطوة، وعلى التوازي، يرمى الوجود بالمكونات من حولي. لا أعرف من أين تنبت وتبدأ في الظهور، وعلى حركة خفقان أجفاني. كان التصور والتكون أسرع من حركة عيني. الصورة تتكون، ليس لأنها صورة، بل لذاكرة في داخلي

تكونها، وعادل كعادته، لا يهتم بتلك الأفكار بقدر اهتمامه بمدى تخزين فمه لحفنة من المسامير وإخراجها بلباقة دون بلع واحد منهم.

محال الجاليري. التماثيل العتيقة. ضوء النهار يحجب ما وراء زجاج الفَتَارين. وجوه غائرة. جالسة على المكاتب، تنتظر الفرج. هنا حدث شيء. توقف عادل مشدوهًا، توقف وبحلق بعينه. راقب هنا المشهد جيدًا. دائمًا ما أسبق عادل بلحظات -أعلمُ أنِّي قلتها من قبل، والآن أرددها في داخلي لكي لا أنسي تلك الحقيقة- أسبقه في ردة الفعل. كيف يقف مذهولاً هكذا وأحاول -من بعده بلحظات- رؤية ما يرى؟

كانت الشجرة. الشجرة ذات الجذع الديناصوري العتيق. خمسة ملائكة يحملونها بأجنحتهم. وقفت أفض هذا المقدس، بإخراج علبة سجائري المحلية، وأقذفُ دخانها إليهم. هذا مشهد يريده عادل. أنا لا أصدقه، ولأني لا أصدقه، سأترك عادل المخبول الحالم، وأقترب منهم وألمس بشرتهم، وإن كانت لهم لغة، سأحاول الفهم والسؤال. لمَ لمْ يحموا الشجرة المقدسة من آدم وزينوا الأمر له؟

كنت أرى كل شيء من لا شيء، وعندما اقتربت من الشجرة ولمست الجذع المهترئ، لم أجد أي ملائكة، إلا بعض الذباب الحائم من حولها، وعادل متسمرًا في مكانه، ينظر إلينا، أنا والشجرة. ليرى شيئًا آخر لا أراه؟ وقفتُ ألتفتُ، ولمحتها تقف داخل المكتبة المتوارية. كانت الشجرة تخفي المكتبة، وبالتالي تخفي من في داخلها. لا أظن أن المسافة بين عادل والمكتبة تكفيه لرؤية من في داخلها. الفتاة التي رأيتها في السينما. المعجزة التي نسيتها. وجدت عادل يقف بجانبي، وبإشارة منه يمنعني من الدخول إلى المكتبة. فتحت باب المكتبة. كانت تقف أمامي. لم تلاحظني، ولم تلتفت إليّ حتى. على اليمين مكتب تعلوه أوراق ودفاتر،

وآلةٌ حاسبة، وجهازُ لاب توب، ورجل داكن البشرة يرتدى قميصًا فضفاضًا، ويدخن بهدوء. قابلني شاب بابتسامة مرحبة، بينما هي ما زالت واقفة عند أحد الرفوف. وقفت بجانبها أراقبها غير مصدق. في لحظات السعادة الفجائية، تتعرى الحواس من كل شيء وتستجيب لكل شيء يحدث. صوت حذائي على الأرضية. حركة أصابع الرجل على الكيبورد. نظرات الشاب الواقف وراءنا بفتور، وعند تعرى الحواس، تصيبك دهشة استجابتها لك. مددتُ يدي بتلقائية إلى أول كتاب أصادفه من الرف، متصنِّعًا الحيرة، مطلقًا زفرات التوتر وأنا أقلبه في ارتباك. ثم مددتُ يدي الأخرى لأمسك كتاباً آخر بعنوان مختلف، وأتمتم بحروف حائرة غير مفهومة. عايز مساعدة. قالها الشاب العامل في المكتبة، ومن قال لك أن تسألني. حركت رأسي علامة الرفض. أشكرك. كانت قد ابتعدت بخطوات ثم دارت دورة كاملة، لتقف ورائي، وبيننا رف مكشوف الوجه من الكتب. هنا، وفي لحظة واحدة، شعرت بوابل من الخطوط المتقاطعة تخترق معطفي من الخلف، كملمس أصابع طفل على ظهرك، فالتفت على نحو مفاجئ، لتفرّ خطوط نظراتها إلى مسارات عشوائية، محاولةً إخفاءها، بإشاحة وجهها نحو الرف السفلي. حسمت أمري، فأعدتُ الكتاب الثاني إلى الرف وقررت اختيار الكتاب الأول، اتجهت إلى الرجل الجالس ومددتُ له الكتاب له، فأمسكه وسجل العنوان، ووقفت بجانبي وقالت بهدوء. كائن لا تحتمل خفته.. روايتي المفضلة. قال الرجل بابتسامة. رواية حلوة فعلاً. قلت. كنت فاكر أن التانية أفضل. وأشرت إلى الرف. قالت. أقرات لكونديرا من قبل؟ الحقيقة.. لا. أبدء بهذه ولن تندم. هززت رأسي ودفعت النقود، نادمًا على ما أفعله اليوم من تبذير، ثم خرجت من المكتبة، ووقفت قليلاً. خرجت بدورها. حضرتك.. أنا أول مرة بصراحة اقرأ كتاب. نظرت إليّ بلا

اهتمام ثم ابتسمت. أنا عايز حد يفهمني اقرأ أزاى؟ أنت عندك حساب على الفيسبوك؟ بسمع عنه. ممكن عن طريقه نتواصل مع بعض. طيب ممكن أدى لحضرتك نمرة التليفون.. وأول ما اعمله أكلمك. ضحكت بزيادة عن المرة الأولى، وأعطتني نمرة الهاتف، فسجّلته. اسم حضرتك. نهاد.

***

22

لم أهتم بوسائل الاتصال الحديثة

وحتى موديل الهاتف الذي أحمله هو نوكيا، ذو شاشة تكفيني لمعرفة المتصل واختيار الرقم للاتصال. لم أحاول فهم هذه التكنولوجيا. حاولت الفهم، فتشجعت على شراء هاتف تاتش. عشان أقدر أحط عليه البرامج دي. وعندما اشتريت واحدًا وجدت الأمر بالغ الصعوبة، وأدركتُ أن الهاتف القديم أفضل منه مئة مرة. لكن كلما هفا طيف نهاد وابتسامتها، شجعني ذلك على محاولة التعلم، ولم أجد إلا عم حسن، وهو يمسك واحدًا بيديه، ونظارته الدقيقة تستقر على أنفه ويقرأ منه بعض المنشورات. علّمني يا عم حسن. دي معجزة يا عادل. أزاي؟ معجزة بشرية مبسطة.. تقدر تفهمها وتتعلمها.. تختلف عن معجزات الماضي.. غير المفهومة. يعنى أقدر أتعلمها. طبعا.. ده مفيش أسهل من أنك تنزل التطبيق اللي محتاجه وتجرب بنفسك. هأخد وقت يا عم حسن؟ وأنت وراك أيه؟ كلما نطق كلمة معجزة، تذكرت نهاد والضوء الأبيض، لم أكن أردد تلك الكلمة من قبل.

تواصلت مع نهاد، وبدأت أفهمِ قليلاً عن هذا العالم، وسعدت جدًا عندما اكتشفتُ خاصيةَ المكالمة عبر برنامج صوتي، دون الحاجة إلى دفع

ثمن المكالمة للشركة. أصبح بإمكاني التحدث معها بكلِّ بساطة، دون القلق بشأنِ شحنِ الكارت، وكل ما عليّ هو أن أبقى بطارية الهاتف على أتم الاستعداد.

كانت تتكلم كالقطارة. كلمة كلمة، وفي أحيان كثيرة. لا ترد على هاتفها. وقرّرت أن تعرّفني على الشلة. تقابلنا في قهوة الحرية. المساءلة مش لأني عبقرى ولا مترفع عن شيء.. الوسط بقا خرا وصفيحة من الزبالة.. والكل بيحاول يتملص منه.. ويخرج بأي وسيلة. قالها شاب أصلع الرأس. تخرج من فمه قطع من الخراء، كما عرفت أثناء حديثه. كان معنا شابان آخران، وأكمل كلامه قائلاً. خواجة أجنبي.. أستاذ جامعي.. كان عامل ورشة إخراج سينمائي.. بعد ما خلصنا المحاضرات.. قعدنا نتكلم وفتح قلبه وقال لي. ما تجرب تبدأ بفيلم بورنو.. وأنا أقدر أسهل ليك سكة التقدم لمهرجانات بره مصر.. مؤكد أنك هتاخد جائزة ولو شرفية.. كأول محاولة من مخرج مصري يدخل عالم البورنو.. براد بيت بدأ خول وممثلات هوليود أغلبيتهم شراميط.. اكسر حاجز الهوية. سكت الأصلع، ثم كحّ من الضحك، فضحكنا جميعًا من وراءه. كانت غالبية حديثه قطعًا من الخراء. كنت أحسب أننا كفئة من الصنيعية، نشتم بعضنا بكل قذارة الدنيا، لكن مع جلوسي معهم، تأكدت أنهم أكثر قذارة منا، نحن الجهلة كما يدّعون. أدركت أن الشهادة الجامعية كانت وسيلة للتدرب على استخدام الألفاظ القذرة في مواضعها الصحيحة؛ أي أن الشتيمةَ تخرج منهم بمرونة وفي مكانها المناسب. نحن الصنيعية نشتم بعشوائية غشيمة، بعضُنا بعضًا، وتتحول أمهاتنا وآباؤنا إلى شخصيات وهمية لها صفات العربدة واللبونة، تلك الشخصيات تتبخر بمجرد انتهاء هوجة الردح بيننا. أما المتعلم، فيؤمن تمامًا أن الشتيمة تعنى المعنى الفعلي للكلمة، ليس الوهمي. عندما قال له الأستاذ أنه

سيبدأ مشواره الفني بالخولنة. كان يقصد ذلك فعلاً، وتطبيقًا، ويعلم تمام العلم أنه يفهم ذلك أيضًا.

***

23

دخلت نهاد إلى حياتي

وتحولت المعجزة إلى العادية. لم أكن أتخيّل أن يأتي يوم أراها فيه مرةً أخرى، وأتكلم معها. كان خيالي يبدع من الذكرى الوحيدة خيالاً خصبًا، ذكرى إحساسي بها في السينما، عندما خرجت من الشاشة وتجسدت في القاعة، كان حلمًا فاق تصوّري. ومع مرور الأيام، تمنيت ألا تكون هي تحديداً -التي رأيتها في السينما- بل شخصًا آخر يُشبهها. فحالة التشابه تصنع لك درعَ الحماية، لتقبل عادية هذا الآخر، وتحمي خيالك من تفتت الكمال. ستجد عذرًا جميلاً يهمس لك. هو شخص عادى فعلاً، لكن هذا الآخر، الذي كنت تبحث عنه، يملك ما تحلم به، فواصل البحث عنه، إما أن تقع في صدفة مع معجزتك، فتتلاقى طرقكما، وتصبحان صديقين، وتقترب منها، لتجدها مجرد شخص عادى. هزيلة القوام، ملساء الجسد، ليست في حيوية أماني ولا انتصاب صدرها، رغم تقارب حجمهما.

كلما تحدثت، كلما تآكلت هالتها. لم أدرى أن المعجزة التي رأيتها بعيني يمكن أتاحتها بكل يسر. تمشى، وتتكلم، وتضحك. كما كنت أتصور صعوبة استيعابي لهاتف التاتش، لكن الآن، ما أسهله وما أتفه. كيف كنت أخلق تلك الهالات في خيالي، هل تنتهي المعجزة عندما يلامسها الواقع ويقترب فهمك منها؟ كيف كنت منبهرا بها من قبل، والآن تبدو عادية، لا تحرك بداخلي أي رغبة في معرفتها، إلا كمجرد صديقة عابرة!

كانت تتحدث عن الأفلام الأجنبية بتدفّقٍ لا ينقطع، تذكر أسماءَ كثيرة، ممثلين، مخرجين، وكتّاب سيناريو. فثقافتي عن السينما الأجنبية تنحصر فيما تعرضه MBC 2، ولم أكن متابعًا أو حافظًا للأسماء بقدر ما تجذبني حركة الصورة أمامي. لم أكن أقرأ ترجمة الأفلام، تشعرني بالتعب. أكتفي بقراءة ملامح الممثلين والعالم الدائر من حولهم، ثم جاء اكتشافي لموقع يوتيوب، وفيديوهات كواليس الأفلام. ليؤكد لي نتيجة أخرى لهدم معجزتي، في رؤية ما خلف المشهد. والطريف في الأمر، أن نهاد نفسها ساعدتني على اكتشاف هذه الفيديوهات وأماكن وجودها، فكانت بذلك سببًا في هدم معجزتها بيديها. هناك عالم خفي يدور في خلفية المعجزة. لا ندري به، لا تراه عيوننا، ولا تمكننا قدرتنا الجسدية من رؤيته إلا بتلك الوضعية؛ وضعية الصورة المنقلبة، حيث يدركه العقل براحة وانبساط. لكن، دع عقلك جانبًا الآن. ما فائدة المعجزة إذا كنت قادرًا على رؤية العالم المبطن لها؟ العادية التي تقف على قدمين متينتين، وتسحق المعجزة تحتها، كما فعلت نهاد معي، عندما فضحت كواليس الأفلام، وكشفت لي كيف صُنعت كل تلك الخيالات العذبة.

حدثتني ذات مرة عن فيلم (بنجامين بوتن) ، الذي يروي القصة الغريبة لحياة بنجامين، الطفل الذي وُلد بجسد عجوز. تجده امرأةٌ عاقر أمام بيتها، وهي تعمل في دار رعاية المسنين، فيأخذها قلبها إلى تربيته، رغم تحذير الطبيب: حياته قصيرة، يحتاج إلى معجزة ليعيش. وفي طفولته يصادق ديزي، الطفلة الشقراء، وتنمو بينهما مشاعر الصداقة، التي يراها الناس من الخارج غريبة بين رجل عجوز طاعن في العمر يلعب مع فتاة صغيرة من عمر أحفاده، بينما في الحقيقة، هما من ذات العمر! قالت نهاد. رغم حسدي لبنجامين على نمو ملامحه وتحوله إلى مرحلة الشباب، وهو حلم كل امرأه، إلا أنني لم أستطع تصور تلك

النهاية بهذه الصورة. أمي تقول دائمًا فور رؤيتها لامرأه عجوز: لا أتمنى الوصول لعمر هذه السيدة. أنا لا أريد تلك النهاية في حياة بنجامين، وأمي لا تريد الخلود. نحن لا نريد الوصول إلى النهاية، سكتت، وسكت بدوري .

***

24

الأفلام نافذة إلى العالم

كنت أشاهدها من قبل بدافع حب الاستطلاع، أما الآن أشاهدها انتظاراً لردود أفعال نهاد والشلة. كانت شقتي مكانًا مناسبًا لهم للسهر والحديث بحرية. نهاد والأصلع كانا الحضور الأساسيّ، ثم يأتي أصدقاء آخرون من محبي القعدة والجلسات. لم أكن أحفظ أسماء؛ الأسماء تتغير مع أصحابها وتتبخر كالأيام. في بادئ الأمر، استغربتُ سعة البراح في العلاقات مع الجنس الناعم، والتي كانت كل فكرتي عنه؛ الالتحام في الفراش، أما أن أجلس معه وأتحدث معهن بعادية، كما يفعلون، فكانت مسألة جديدة لي، لا أقصد بالضرورة الخوض في علاقة جسدية مع كل فتاة، بل أتكلم عن الشعور الحقيقي الذي مسّني من ناحية نهاد، وأعاد تشكيل نظرتي إلى النساء بمنظور مختلف، وهو أن تصبح العلاقة معهن، عادية. مع نهاد أو مع غيرها.

كانت للسهرة طَقسٌ متّبَع، يرتّبه من يرافق وافدًا جديدًا إلينا، وهو أن يحضر معه شيئًا يكفي للجميع. منهم من يحضر البيرة و التسالي كـاللب والسوداني، ومنهم من يتطوّع لتحضير العشاء. كنا نتعاون معًا. هناك غرفة نومي المباحة للجميع، وهناك الحجرة المغلقة، لكن نهاد وحدها كانت تسأل بين حين وآخر عن تلك الحجرة الأخرى، وعن سبب

إغلاقها دائمًا. لم يسألني أحد عن الحجرة المغلقة. وبصفتي صاحب الشقة والمكان، كان ردي المعتاد: حجرة العمل.. ولا تخص أحدًا. أغلب من كان يأتي طلبة حديثو التخرج، ونهاد خريجة كلية الآداب، قسم الصحافة، تعمل تحت التدريب في جريدة إلكترونية.

كنا نسهر الليل حتى يبدأ في تصفية مريديه ومحبيه، فلا يبقى إلا الصامدون حتى النهاية. نهاد والأصلع كانا أكثر من يصمد بين الأصدقاء. أما من يغادرنا، فغالبًا لارتباطه بموعد عودة إلى البيت. مع الوقت، تيقنتُ بوجود علاقة بينهما، وصارحت نهاد بذلك، رغم أن الأمر لم يكن يشغلني بقدر ما كان حبًا في الاستطلاع عن باطنها. أقولك سرًا.. بس بشرط. أيه؟ تقولي في المقابل عن سر ليك. أنا موافق. ده صديقي من الطفولة.. كنا في مدرسة مشتركة سنين طويلة مع بعض.. أمه تعرف أمي وفي صلة ودّ بينا.. والعيلة تتمنى نرتبط ببعض.. بس للأسف.. أحنا حاسين إننا إخوة فعلاً مع بعض.. علاقتنا أخوية بشكل فعلي في كل حاجة.. وفي فترة الجامعة.. بِعدنا عن بعض يمكن لاختلاف الجامعات.. ورجعنا نتكلم تانى من وقت حدوث الثورة.. اللي جمعتنا في ميدان واحد وجمعت كل الناس.. وبعد ما حلمنا راح وانتهى ورجعنا زى الأول مع شوية تعديلات على السطح.. رجعنا نحلم تانى بالمستقبل.. عشان كده بقدر أروح براحتي بالليل سواء معه أو لوحدي.. يعنى لو سألوني في البيت بقول عالطول.. كنت معه.. فيطمنوا عالطول. سكتنا ثم قالت. قولي بقا على سر. أنا معنديش أسرار. إيه ده أزاي.. في حد معندوش أسرار؟ صمت للحظات وقلت. اللي حابتها ماتت وكانت صغيرة في السن. تفاجأت وتفحصت وجهي، لترى إن كنت أمزح، لكن تجهمت قليلاً عندما تذكرت ملامح أماني .أنا آسفة.. مكنتش أقصد أفكرك.. أنا آسفة.

تاهت منى الحروف، واندهشت من تأثري بتلك الذكرى. تذكّرتها من قبل، ولم أشعر بهبوب تلك الريح القاسية كما أشعر بها الآن. أكان النطق بالذكرى له مدلول مؤثّر في داخلي، أم أن تأثر ملامح نهاد هو ما ترك أثره عليّ؟

***

25

الشبورة تركض من ورائي وتحاصرني من كل اتجاه

التصقت بحائط المبنى وهي تواصل الزحف، ناثرة الضباب إلى السماء. وحشٌ عملاق يتمادى في تفاخر، ثم صحوت من النوم على صوت جرس الشقة، المُلح بلا كلل. قمت مترنحًا، ونداء الطبيعة أكثر إلحاحًا. توجهت إلى الباب أولاً لأفتحه، لأجد رجلاً يرتدي كابًا على رأسه. ابتسم بطلاوة. أستاذ عادل.. أنا المندوب.. جاي من طرف الوالد. سكت، ولم أفهم بعد، ونداء الطبيعة كاد أن يدمرني. أشرت له بالدخول وعيني ما زالت تعتاد حياة النور. رجعت إلى الحمام، وأفرغت مثانتي في متعة تقارب متعة القذف، غسلت رأسي وتأملت وجهي في المرآة. أما زلت داخل الحلم؟

رجعت إلى الرجل الذي جلس باستكانة، والكاب ما زال يزين رأسه، جلست ثم تذكرت. تشرب حاجة؟ أنا لا أشرب. كان ردًا مفاجئًا ولم أشعر بقوته في لحظتها إلا بعد حين. قلت. أنا كده أو كده هعمل شاي.. أعملك واحد معايا. قلت لك لا أشرب. قالها بحزم ثم ابتسم. قمت بتحضير الشاي وأكلت قطعة من الجبن، محاولاً استعادة وعيي بصورة كاملة.

أمسكت بكوب الشاي وأخرجت سجائري، فمد يديه بتلقائية، فأعطيته واحدة. كاب جميل. أشكرك. نفثنا دخانًا يشبه تلك الشبورة، ولكن بصورة مصغرة. أكانت رؤيةً من داخل الحلم؟

قال. أنا مندوب من طرف الوالد. سكت وابتسم.

_ هو فين؟

_ مشغول.

_ في حاجة أهم مني؟

_ كتير.. له أبناء آخرون.

_ ودلوقتي؟ موجود أو مش موجود.. أنا عايش بدونه.

_ أنت محتاجه.

حاولت الرد، فاكتفيت بهز رأسي .

_أنت عايز تشوفه.

_ حاسس إنك تتحدث باسمه.

_ أنا مندوب من عنده.. ربما لو نفذت طلبه.. تقدر تشوفه.

وأنا أنفذ ليه طلبه؟ قلتها في سرعة.

أخرج من جيب الجاكيت، رزمة من ورق المائتي جنيه، وورقة مدوّن عليها عنوان وقال.

_ أبوك مُطلعْ على كل حاجة.. وده مبلغ.. أعتبره بداية الكلام.

كانت نقودًا بحق وحقيقي، مبلغًا محترمًا.

_ أبوك عايزك تقتل.

لثانية، تنقّلتْ عيني بين المبلغ الموضوع على الطاولة والكاب فوق رأسه. كانا شيئين مختلفين، لم أرهما معًا من قبل، كان الشيء المشترك بينهما، الوجود في حيز فيلم أجنبي داخل شاشة التلفزيون، الآن وجدت شيئًا مشتركًا آخر، أكثر وجودًا، وأكثر نبضًا. القتل يجمع كل الخيوط، الأبوة والمال.

_ حضرتك.. فاهم غلط.

_ اعتبرني حد من الداخلية.. لو ده يقدر يقرب ليك الصورة.. ودي مش كل الحقيقة.. لو عايز تريح عقلك.. اعتبرها كده.

والسلطة، نسيت الكلمة الأهم. كان مشغولاً كل تلك السنين، لأنه في منصب حساس، ربما في الأمن الوطني. المخابرات. منصب يحتم عليه الاختفاء، أعيش الآن في فيلم، عن قصة حياة رجل يخدم الوطن بسرية ويترك ابنه يقتل في حرية، وتعمل قوى سلطته على حمايته، أنه ابن رجل وطني.

_ يعنى لو لم أوافق؟

_ بسيطة. تحركت يداه إلى حفنة المال وأعادها إلى مكانها. اعتبرني يا عادل.. كأني لم آتِ لك.. وهاوصل رفضك إليه.

_ الحكاية مش فلوس.. أنا عايز أشوفه بجد.

_هاوصل له طلبك.

_أنا حاسس إنه بقى زي ربنا.

سكت المندوب وابتسم. ثم وقف، صافحني، وتحرك إلى الباب وغادرني .

***

26

لم أناد عليه

وتركته يمشي إلى الباب دون وداع، لم أتحرك وراءه، ولم أدعه للعودة والجلوس وإكمال الكلام، تركت المال يتبخر بكل سهولة، وبحماقة نادرة، ودون معرفة أي تفاصيل عن أي شيء، وبما أنه ذو منصب، كما يدعى المندوب، لماذا اختارني دونًا عن أي أحد؟ كان في استطاعته تجنبي عن القتل. أنا لستُ بقاتل. ضحك الآخر. أنا لستُ بقاتل. كان يمكنه اختيار أحد غيري، لماذا اختارني أنا؟ كان بإمكانه أن يكلمني بنفسه، أو على أقل تقدير، أن أسمع صوته وأخرج منه بمعلومة تفيدني. وكانت عبارة (اعتبرني من الداخلية) ثم نفيها بعد ذلك، لأمر يثير الحيرة، الجملة وعكسها.

نظرت إلى السقف مبحلقًا. أَيَنْظُر إليَّ الآن، ومن خلال تلك الكتل الأسمنتية، يقرأ أفكاري المرسومة فوق رأسي؟ أنا ابنك. مدَّ يدك إليّ. لا أراك إلا في الصور والحكايات، وحين تهفو سيرتك. ترمى لي ذرة من بحرك، فأتذكرك. أنت تحتاجني. تبحث عني. ترسل مندوباً كي أؤمن بوجودك. تغويني من أجل رغبتك في إذلالي وتركيعي .

قالت نهاد. في رواية الطريق، من الفيلم المأخوذ عنها، يبحث رشدي أباظة عن والده. قلت في داخلي. أنا لا أبحث عنه. أكملتْ. ويقابل في البنسيون شادية. الغواية. وعلى التوازي، يقابل سعاد حسني، التي تسمع قصته وتحاول البحث معه عن والده، بينما تغويه شادية على قتل زوجها العجوز. صاحب البنسيون، لتكون هي والثروة له.

أسهبت في الحديث، ولم ألتقط منه إلا عبارات قليلة. لماذا يبحث عني ويعرض طلبه بهذه الاستباحة؟ طلب مقابل حاجة. قتل ومال مقابل رؤيته.

_ عادل.. أنا أعرفك ومعرفكش؟

_ إزاي؟

_ أنت بالكاد بتتكلم.

_ لا أحب الكلام الكتير.

_ يعنى أنا مصدعاك! ورفعت حاجبيها بدلال.

_ بالعكس.. أنا بحب دايمًا أسمعك.

***

27

هنا حدث الانفجار

وكان الخلق على المقاهي ليلاً، لا يدرون بشيء. الأمر أشبه بصوت مكتوم، لم يسمعه أحد. بتدبير من صانع القرار، سُربت شحنات من أطنان الحشيش المهدرج والمهرب من باكستان إلى قلب القاهرة. زادت مرتبات موظفي الحكومة في كل الدرجات، وأعطت محطات البنزين الإشارة إلى التخزين وتباطؤ الضخ، بتقليل ساعات العمل. أما تجار الجملة، فلم يردون على مكالمات تجار السلع الغذائية والمحلات، مما زاد من عجز السلع ونقص البضائع. وشُحت كل السجائر المستوردة من الأكشاك، ليبدأ عصر الكليوباترا المحلية في الرواج، وانتعش سوق العملات وانتشر في كل الشوارع. الكل يتاجر في الأخضر، والكل يخفي دولاراً في مكان سري. لم يشح السكر بعد ثورتين إلا الآن، وسيرتفع سعره،

لذا كان على المقاهي تقليل جرعات السكر للزبائن؛ فمن يطلب ثلاثًا يُعط اثنتين، ومن يطلب واحدة لا يُعط شيئًا. وتكتّلت محالّ الحلويات على مخازن السكر، محاولةً تخزين الكميات خوفًا من ارتفاع سعره الأيام المقبلة، وسائقو الميكروباص شمّوا الرائحة في مواقفهم العشوائية، فرفعوا الأجرة، رغم أن السولار لم يرتفع ثمنه لاحقًا! أما البرامج المتلفزة تخرج ليلاً بلقاءات مع ضيوف معروفين، يتنقلون كالذباب من برنامج إلى آخر، ونظرية الإصلاح الاقتصادي تحلّق في الفضاء وحيدة بعيدة عن الجمهور. مستودعات الخشب -المغالق- أغلقت مخازنها بالضبّة والمفتاح، ومن فتح أبوابه لنا، فرض السعر الأعلى من المتداول. ولو اتفقنا اليوم على طلبية بأسعار السوق الحالية، نفاجأ في نهاية اليوم بزيادة السعر عمّا تم الاتفاق عليه. حاولنا بشتى الطرق التحايل؛ بدأنا بتقليل الجودة، ثم تقليل النوعية، ثم تخفيض الخامة، إلى أن وصلنا إلى الاستغناء المؤقت عن العمالة، عبر إطالة مواعيد التسليم بحجة قلة الأيدي العاملة.

لجأتُ إلى شغل (المرامّات) أي الترميم، كعامل أجرة يومي. ورغم المشاكل التي لا تنتهي مع زبائن المرمات، من إصلاح أشياء لا يمكن إصلاحها، إلى شراء ما يلزم من خامات، ثم محاولات الفصال على أجرتي -مصنعيتي- في نهاية اليوم، إلا أن الحل السحري لنا لمواجهة ذلك كان في ضرب -تزوير- الفاتورة وتزويدها بسعر غير حقيقي عن سعرها الأصلي، ليخرج فرق السعر إلى جيبي، متجنبًا بذلك نقاش الفصال ووجع الدماغ. كلها طرق كانت تؤدى إلى سد حاجاتي مع انخفاض شغل الورشة التي أعمل بها، وبما أن أعبائي الشخصية تتلخص في السجائر والطعام، إلا أن موجة تعويم العملة، كانت تعلو وتهدر من أسبوع لآخر. الزيادة المستمرة لم تحدث من قبل بهذا الفُجر من الحكومة وبهذا الرضا من

الناس، والتسليم بالأمر الواقع. كان أمرًا مثيرًا للحيرة، خاصةً لمنتمي التيار الإخواني، فكل القنوات المتلفزة التابعة لهم دقّت طبول عودة الثورة من جديد، ونادت على الشعب للنزول إلى الميادين، أما البث المحلي التابع للحكومة فكان يُغرّد منفردًا بنظرية أن الثورة خرّبت الاقتصاد وأوقفت عجلة الإنتاج.

كان الإسراف المتوالي للنقود يقل مع مرور الشهور، بينما كان الآخر وعادل، أو أنا والآخر، يلومني في كل ليلة عن الفرصة الهينة التي أضعتها من يدي كالأحمق .

قالت نهاد. نحن نعيش في فيلم حقيقي.. عالم يشبه المؤثرات البصرية. قلت لها. أرى ضياءً أبيض منذ طفولتي.. يشبه الضوء في السينما.. وعندما رأيتك. كانت تنظر إليّ بتركيزٍ ثم قالت. أنت تسكت.. تسكت وتطلع بكلام غريب. قلت. أنا بكلمك جد.. أنا شوفتك قبل ما أنتي تعرفيني.. وأكيد أنتي مش فاكرة. قالت. طب فكّرني يمكن ناسية. قلت. كنت أول مرة أدخل سينما. صاحت بهمس. يا سلام وبعدين. أكملتُ. الشاشة كانت كبيرة.. أول مرة اشوف شاشة بالحجم ده.. وبعدين لمحتك. ردّت في سرعة. وكنت بتحلم بيا كمان. قلت. بكلمك جد.. شوفتك مع صحابك.. مركّزتش عليهم.. قد ما ركّزت عليكي. ردّت في نشوة. يا سلام! وأنا مأخدتش بالي؟ كنتي بطلة الفيلم.. أنتي مثلتي قبل كده؟ أبتسمت في إعجاب وقالت. أنت بتعرف تعاكس أهو.. أومال عامل أنك في حالك ليه؟

كنت لا أحسب الصدق غزلاً. يصل إلى القلب ويستقر. قالت. وكان الفيلم اسمه إيه؟ مش فاكر. طب كانت سينما إيه؟ هبقى أقولك على

مكانها. أنت كنت عامل دماغ ساعتها وغمزت بعينها. بكلمك جد ده اللي حصل. وأنا مصدقة خلاص.

وفي يوم لاحق، كنا في منطقة وسط البلد. ذكّرتني نهاد بمغازلتي، وسألتني عن مكان السينما. مشينا على ذاكرتي، بينما ذاكرتها أظنها حاضرة عني في تلك البقعة. نمشي وندخل ونخرج من الشوارع، نلفّ وندور. سألتني. كان جنبها إيه؟ أكيد كان في شيء مميز جنبها. كانت تبتسم، معتبرةً حكايتي لعبة خيالية في ذهنها، بينما كانت صادقة في ذهني. قلت. هناك في آخر الشارع المتشكّل في انسيابية. قالت بثقة. لا توجد دور عرض هنا. أكملنا المسير وخاب ظن ذاكرتي، ثم وقفتُ فجأة وأشرتُ بيدي. هُنا. سألتني متعجّبة. هُنا فين؟

كانت صفوف محالّ الملابس المصطفّة تحجب الرؤية. قلت. هنا كان في ستاند عليه صورة الفيلم. قالت باستفهام. تقصد بوستر الفيلم.. طيب وفين السينما؟ أشرتُ إلى ممر مختبئ خلف الواجهة وقلت. هناك.. كان مدخلها هنا. سارت معي. وكان ممر ضيّقًا في بدايته، لكنه أخذ يتّسع تدريجيًا كلما توغلنا داخله، حتى انفتح على ساحة نصف دائرية تملؤها الأطلال المهدّمة. توقّفنا أمام كُوّة صغيرة، تشبه شباك تحصيل التذاكر، وقد علاها الصدأ وتآكلت أسياخها الحديدية. أما الواجهة، فقد التصقت بها صور بالية لم يعد لها ملامح واضحة. تقدّمنا خطوة، نتأمل أعلى سقف البناية في محاولة لاستيعاب الواجهة القديمة لدار العرض المنعزلة، التي كانت محتجبة تمامًا خلف لافتة أحد المحالّ. قالت في دهشة.

_أنت عثرت على السينما دي إزاي؟

_ وحضرت فيلمًا بها.

كنت مندهشًا بدوري، أتخيل ما حدث وكيف حدث، وهل كان حلمًا كالشبورة؟

تغيّرت ملامحها وهي تسمع نبرة كلامي الصادق، وكأنها تكتشف فيّ ملامح غريبة عنها، ثم ابتسمت وقالت. خلاص أنا هقبل مغازلتك الجميلة.. ومتشكرة أنك عرّفتني على المكان ده.

***

28

احتفظت باحتمالية

تشابه دور السينما في الشكل الخارجي. هناك احتمال ضئيل بكوني في حلم، ورأيتها، وكان الحلم مجسّدًا بدرجة فائقة، مكّنتني من رؤية معالم الشارع بوضوح، وكوني ما زلت في داخل الحلم، أواصل الحياة فيه بقواعده المستحيلة، يعنى لو ركضت الآن وقفزت من الشباك، لن أموت، فيتبدل الماضي من جديد، لتعود الدماء الناشعة من الفراغ، وترتد الطعنات إلى الوراء، وتسترد الأرواح أجسادها، وأعود إلى مكاني أحدّق في عين المُدرس السوداء ذات الهوة العميقة، وفي يديه طفل آخر، ويغلق الباب المغطى بألوان الزيت. وصورة والدي تتآكل من ذهني، وتواصل عملية التراجع إلى الوراء، تعود إلى حوض التحميض، ثم إلى صورتها الأولية، مجرد ذرات على شريط التحميض، داخل الكاميرا. ووالدي يبتسم إلى الكاميرا. ابتسامة حمقاء، لا معنى لها.

في ذلك اليوم، رأيت الآخر يراقب شخصًا في الشارع، يتبعه وهو يصعد الدرج، ثم يدخل خلفه إلى شقته. ببطء، يُخرج مطواته ويغمدها في جسده، فيسقط الرجل، فيطعنه مجددًا في جانبه. لم أفكر في ملامحه

أثناء الطعن، تمامًا كما لم أفكر في ملامحي أثناء الجماع. الأزمنة تتخبط وتنفجر في ضراوة. الزمن يناضل ليظل ثابتًا، أحاول الوقوف على قدمي وكسر الدولاب ومد يدي في الفجوات. أعود إلى الشارع أكثر تأملاً وأكثر ثباتًا. لماذا رفضت طلب الأب؟ بل رفضت طريقته، والمقابل الوحيد هو الوقوف بين يديه. نظر إليّ الآخر وقال. والمعرفة مصلحة.. تجلب مصالح أخرى.. ربما لا تدري عنها شيئًا. كان التأثير يُخدل جسدي، والتشذي أكبر مما أحتمل، وإدراكي فاق التصور، والأبيض كدبيب النمل، يغرز أطرافه الدقيقة في ساعدي، فأخفيت كفي في معطفي. هناك قدرة من الأبيض تنتقل إلى جسدي. لا أعلم مدى تأثيرها، مدى انتقال الصورة إلى الحقيقة، مدى تجسد بطلة الفيلم في نهاد. كلها أشياء تتطابق وتتكثف لصنع النظرية، لتخلق مفهوم الانتقال إلى جسدي، ولتشكل هذا الآخر الذي يمشي إلى جانبي. أنا لست مريضًا، لأنني لو كنت كذلك، وأشار الآخر بأصبعه نحوي. لما استطعت إدراك كل ذلك بعين الواعي، بكل هذه التصورات، بكل هذا الوضوح. هززت رأسي موافقًا، بينما التصورات تحاول فرز الخيال عن الحقيقة.

كان الشارع يضيق أفقًا، والليل يسيطر على المدينة، والمشي في دروبها مفتاح الإلهام، هناك صوت مكتوم ينبعث من بطن الظلام، صوت يلهث ببأس مريع. كنت أمشي والأبيض يجرى في داخلي، وأشعر بحكة في ساعدي. هناك في الزقاق الضيق، تحت مصباح إنارة مكسور، وسط رائحة كريهة. رأيت ظلين وفتاة. فاحت رائحتها في الهواء. المطواة تتدفأ بين أصابعي. ناولت الأول في الرقبة، والثاني دفعني، فقبضت على شعره، ويدي المكسية بالأبيض. جذبته من شعر رأسه بعنف، ثم خبطته في مكب الزبالة بين القطط الضالة.

سيدي أنا عبدتك.. سيدي أنا ملك لك.. وقفتُ ساندًا يدي على الحائط. أسترد أنفاسي. تسللت من تحتي ورقدت تنظر إليّ بعين قطة، بينما كان ضوء المصباح الخافت يتراقص مع حركة الريح. اقتربت من تحتي وفكت أزرار الجينز وأنزلت السوستة وأخفضت لباسي. إنه دافئ.. رائحته حلوة. أدخلته في فم كالفرن. تقول. لونه أبيض وطعمه كالفانيلا، تواصل مضغه. لونه زي الحليب.. ياترى طعمه زي شكله، تحركه بيديها بأنفاس شاهقة. سيدي اقذف أرجوك. وتواصل اللحس. سيدي أرجوك. النهر ينبع وأتحسس خفقان دُنُوَ فيضانه، شربته في ظمأ كالمجنون. الله طعمه حلو.. زى الفانيلا.. الله. مصته إلى آخر قطرة وعينها مغمضة كالمخمور. عالجت بنطلوني وتركتها ناعسة. اهتزّت ركبتي قليلاً، والليل يحتضر بلا نهاية.

***

29

كنت أعود في كل ليلة

إلى حجرة النجارة، وأسهر بها ساهمًا أو عاملاً أحيانًا، أراقب رسمًا يمكن إضافته خلقًا آخر. على الدوام أحضر الخامات والأدوات. في مرة رأيت على اليوتيوب ألعاب الليجو، تلك المكعبات والأشخاص الصغيرة التي تتحرك مع الصورة كأنها حقيقة، مع حركة الكاميرات، فتشعرك بحياة نابضة الروح بالحركة، كما يتحرك فيلم الكارتون. مع الحركة تتولد الصورة. استعلمت ذات مرة عن سعر الليجو من متجر فاخر في المهندسين، وجدت ثمنها كسعر الذهب. وجدت كاميرات المراقبة في كل ركن، ووجدت أطفالاً ملامحهم تفوحُ برائحة الشامبو، وتبدو فكرة سرقة هذا المتجر من أجل شخصيات الليجو حلمًا شيقًا، رأيته في عيونهم.

كانت التصورات على هيئة صور تواصل الحركة، وفي صخب ذلك، تصورت شيئًا على سطح المرآة يراقبني من الممر، المرآة القابعة المتسخة من زمن مضى على الحائط. كنت أتخيل أشباحًا تتحرك وتختفي مع الضوء الطفيف المنعكس من المرايا، في الحمام، في حجرة النوم. أما في حجرة النجارة، فتخلو من المرايا إلا من شاشة الهاتف المطفأة، فتهيأ لي ظل ينعكس عليها. كلها خيالات تمشى معنا، كأفكارنا المختبئة في عقولنا. وغالبًا ما تظهر لنا.

بعدها بأيام، وفي ساعة من الليل، رن جرس الباب. كانت نهاد واقفة وعندما فتحت الباب، تحولت هيئتها إلى المندوب! وقفت قليلاً مندهشًا. وجدته قد دلف بجسده، ومشى إلى ردهة الصالة وعلى المقعد نفسه جلس. أغلقت الباب وجلست بدوري.

_ حيرتنا معك يا عادل.. لماذا لم تأخذ الفلوس؟

سكت ولم أفهم لثواني ما يقصد، ثم قلت.

_ نفذت ما طلب.. وقتلت الرجل.. ولكن المسألة ليست المال.. لو كنت بجري وراء المال كنت قبلت عروض أكبر.. واشتغلت مع ناس أوسخ.. حبيت أوصل رسالة لأبويا إن اللي بينا مش فلوس.

لم أفهم ما أقول، وفي محاولة للفهم، بدأت لعبة الصور من جديد، تغازل الذاكرة. لقد رفضت العرض ولكن الآخر قبله رغمًا عني وقرأ الورقة، التي كانت مدونًا عليها العنوان والشخص المطلوب. وبرغم ذلك، ما زال لي تأثير عليه، فأرغمته على ترك المال.

_ وعشان أنت مش محتاج الفلوس.. كسرت الدولاب.. عشان تاخد شوية فكة عبيطة!

_ قلت لك المبدأ مش فلوس.. ولو كنت بتاع فلوس.. كنت قبلت العرض.. وأظن أني نفذت ما طلب.

_ أنت لم تنفذ.. نفذت يادوب.. نص الطلب.

_ نفذت القتل.

_ ورفضت المال. وأخرج الرزمة، ووضعها على الترابيزة.

أمسكتها في يدي خوفًا من ترددي، كالمرة السابقة.

_ أبوك يكره من يعصى.. وأنت عصيت أمره.. فكيف تطلب أن تراه؟

لقد تحول الكبرياء إلى إذلال، وكله بفضل الآخر.

_ أنت تحاول تنفيذ إرادتك.. وهو يكره الإرادة.

وقف فجأة مع آخر كلمة له ورفع الكاب، علامة على الوداع.

_ له طلب أخير.. ابتعد عن نهاد.

_ وما دخل نهاد الآن؟

_ آخر طلب له.. نفذه تعش في سلام.

تحرك إلى الباب وغادر البيت.

***

30

عشرون ألفَ جنيهِ

مبلغًا قيم في وقت صعب. زرت عمتي وأعطيتها خمسةَ آلاف منه، وعندما سألت، قلت لها منه، أرسله عن طريق مندوب، ولم أخبرها عن الصفقة ولا عن المقابل الحقيقي. لم أشأ كسر التصور الملائكي له. هو

أخوها، هي الحقيقة، والحقيقة لا تحتمل، لأنها الصدق ونحن لا نصدق، وربما كانت تعلم كل شيء وتكتم سره. هو كان يزورها. أكيد لديها معلومات عنه.

رن هاتفي برقم غير مسجل عندي. احتمال، زبونًا معه رقمي ويطلبني. كان الأقرع صديق نهاد. قلت. كيف عرفت رقمي؟ من نهاد. وفين نهاد؟ بخير وكويسة ولكن منهارة عشان والدها توفى. قلت. أمتى ده حصل؟ من كام يوم. أنا حبيت أبلغك.. هنروح البيت نعزى. طبعًا واجب. أديك العنوان. باليل نتقابل. سلام. سلام.

كان العنوان يبدو مألوفًا. تقابلنا في الشارع أمام العمارة، وشكل العمارة مش غريب عليا. الليل يبدأ سطوته. همس لي أن المرحوم مات مقتولاً نتيجة سرقة حدثت له. تلك نفس العمارة التي كنت بها منذ أيام. أهي نفس الشقة؟ دخلنا إلى الأسانسير وضغط الأقرع على الرقم ستة. الحمد لله. الصدفة أنها العمارة ذاتها، ولكن أتذكر ذلك الرجل، كانت الشقة في الدور الثامن. دخلنا إلى الشقة. استقبلتنا نهاد بوجه ذابل جميل لا مكياج فيه، ففاحت نضارته. صافحتنا بود، وكان هناك أفراد من العائلة، فجلسنا معهم وهززنا رؤوسنا مع الكلمات السارحة حولنا. تركتنا ثم عادت تسألنا نشرب إيه؟ قهوة. عندما عادت إلينا، وهي ترتدى فستانًا أسود عاريًا من الكتفين. كانت تبدو فاتنةً في وجه الحزن والأسى. أنا أتاخرت عليكي. لا ولا يهمك. كنت المفروض أكون أول الحاضرين. معلش حصل خير. كلما ردّت عليّ باقتضاب، كلما تهيجت أساريري بشكل غريب. عندما تذكرت الآخر، الذي كان يمشي معي منذ لحظات في الشارع، وقد اختفى. تعجبت. هناك انجذاب عاطفي الآن إلى نهاد لا أفهم توقيته. كنت أراها باستمرار ولم أشعر بذلك من قبل.

هناك شخص يجلس في الصالون المقابل لنا، عينه كلما تحركت، توقفت ناحيتي، تبدو ملامحه كأنّه خالُ نهاد أو عمّها. أصوات هامسة وعيون ناظرة إلى الأرضية باستمرار. تركتنا نهاد والفستان يهفو كالفراشة. بنفحة بسيطة، تنحسر التنورة، بنفخة من فمي، تتعرى منه وأدخله على مهل ونهتز كمد النهر، تتدفق السخونة، ونتجرد من الواقع وتعض على شفتي، انتفض دون اكتراث بالحضور، أجردك من أحزانك ونصرخ، فيصرخ معنا الحضور، وتتبدل الصورة العُرفية إلى الصورة الفطرية، فيتجرد الحضور من ملابسه، وفي شبق تتعالى الآهات، فننسى كل الأحزان -إن كان هناك حزن حقًا وليس تمثيلاً اجتماعيًا- ونصخب طوال الليل. نتبادل الأجساد، فنفرز سائلنا وينز الأبيض من مسامنا، فتتحرر أجسادنا ويبدأ الناس في الإيمان برؤيتي. تبدو عين الرجل المبحلقة وكأنها تعرفني، وجهه مألوفٌ لي. لمحت الآخر يمشي في الصالون، ويهز رأسه لمن! لا أعرف، ثم يجلس بجانبي ويبدو عليه التغيّر. لا، ليس تغيّر ملامحه تحديدًا، بل ابتسامته غير المتناسقة. لا، ليست ابتسامته على وجه التحديد، بل يشبه ما نعرفه عن حركة الشفاه في الذم. اقترب منى أكثر، وهمس. أنت عارف.. أنت في عزى مين؟ أبو نهاد.. اللي أنت قتلته. رمى كلمته كالرشقة الماطرة. صدمتني عين الرجل الجالس في الصالون من جديد، وكأنها تؤكد على كلامه؛ تشبه عين المقتول. ده أخوه. قالها الآخر في ثقة. لم أحضر عزاء مقتولٍ من قبل، بل وتكون نطفته، صديقة لي.

أمسك الآخر بذراعي بقوة، لنغادر قبل قيام المذبحة. كان بداخلي موقد يتأجج، رغم انكباب الماء البارد بلا توقف. عندما تحركت لأغادر، صاحبني انتصاب شبقي، فحركت نهاد عينيها لأسفل أثناء مصافحتي. لا أعلم تحديدًا، ألمحته عيناها أم هو هياج أوهامي؟ عندما صافحتها،

كنت أتمنى أن تلمسه، تصافحه، ولن يرى أحد ما حدث، وإن رآه أحد وحكى، فلن يصدقه أحد. مستعجل ليه؟ معلش.. هاكلمك وقت تانى. عدت إلى البيت واستنميت عليها.

***

31

لقد قتلت الإله

كنت جالسًا أمام التلفزيون، وبالصدفة لمحت أحد الأشخاص يتحدث عن نظرية موت الإله. كان الرجل ضخم البنيان، يتحدث بحماسة، والعرق يلمع على جبهته، والمذيع يهز رأسه وكأنه يفهم ما يقول، بينما عيناه ترسمان الغباء. وعلى أي حال، كنت أشترك معه في ذلك، وسرحت في حالة نهاد. لقد قتلت أباها، والمحرض على قتله، إلهاً آخر!

الرجل يتكلم والمذيع بدوره يواصل هزّ رأسه. لماذا حرضني على قتله، ما العلاقة بينهما، بعيدًا عن علاقتي بنهاد، أيجبرنى على الولاء بتنفيذ أوامره؟

مرت الشهور، وخلالها نفذت كل محاولات القتل الممكنة، وعلى طريقته؛ طريقة أبى. أتبتسم؟ فشخ الآخر فمه. كانت تأتي كل رسالة على الهاتف، مدون بها؛ الاسم. العنوان. المبلغ المستحق بعد التنفيذ. كلما تعقدت التفاصيل، زاد المبلغ وزنًا. كان يعلم بوجود القاتل داخلي، وربما من داخله، وربما يكون هو القاتل الحقيقي وليس أنا ! وبطريقة ما، يحركني من داخله؟

كيف لم أهاتف نهاد من بعدها واسأل عنها؟ لم أشعر بالذنب من قبل، وربما هو الحاجز بين الاقتراب والبعد. إن هجرتني، فلها كل الحق.

أحيانًا أتخيلها، وقد عرفت الحقيقة وتكتمها في قلبها، وربما تتحرى الشرطة وتريد إيقاعي في المصيدة. هكذا تجري الأمور في الأفلام، تكون هي الطعم، وربما البعد عنها فجأة يثير الشبهة، وربما القرب يثير الريبة، وربما يتحول القتل إلى عادة فطرية ونهج في الحياة، يعنى تقدر تقتل أباك؟ باغتنى الآخر بالسؤال، فى تركيز من ينتظر الإجابة. أقتلُ الوجود! وأنهى مصدر النقود بيدي؟ هناك مصادر أخرى للنقود. إلا هو.. مصدر مضمون. وما الضامن؟ أنت. أنا ابنه.. إن قتلني يموت هو. له أبناء غيرك.. تموت أنت.. يولد آخرون. احك من منظوري، أيها الغبي. هز الآخر رأسه ورفع لي أصبعه الأوسط في إشارة للإهانة.

هاتفت نهاد، وصوت رنات هاتفها كان معلقًا على غير العادة لمدة طويلة. وأتى صوتها أخيرًا بعيدًا ومتقطعًا.

_ ألو.. عادل.. عامل إيه؟

_ أنا بخير.. أنتى اللي إزيك؟

_ الحمد لله كويسة.. الحمد لله.

_ عايز أقابلك واحشاني.

_ أنا كمان.

_ ما تيجي البيت ولا عايزة تخرجي.

_ نخرج أحسن نتقابل في جروبي.

_ تمام.

تقابلنا في الليل، وكان جروبي رائقًا من المريدين، إلا من مائدة على جانبنا، تجلس عندها فتاة تُعلِّم شابًا أجنبيًا اللغة العربية. كانت نهاد صامتة قليلاً، تتكلم ثم تسكت، لكنها لم تلُمني كسائر المصريين على

تأخري في الاتصال بها. أنا عارف أنك لما بتحزني.. بتحبي تكوني لوحدك.. فقلت أسيبك براحتك. ده أنت بتتحجج بيا عشان تلاقي عذر.. تعرف أكتر حاجة قهراني إيه.. إنه مات غدر.. مش على سريره. كأنها قذفت حجرًا في وجهي. دي أكتر حاجة مزعلاني.. وكل ما أفكر.. أتعب. متفكريش كتير. قلتُها بصوت باح لثانية. كنت أرى عينه من عينها، نسخة منها.

أنزل النادل الطلب، فأشعلت سيجارتي. كانت نهاد متماسكة، رغم كل تصور. يبدو أن الزمن طبيب مداوٍ لكل حزن. كانت نظرتها تأخذ طابعًا أكثر تصميمًا واستسلامًا. لمحت غرابًا يقفز على رصيف الشارع، وذبابة ترقص على زجاج النافذة، وسمعت قلبي يخفق بلا داعٍ، والعالم بدا أكثر لمعانًا من قبل. عادل أنت بتنزف. كانت تداعبني كعادتها، فابتسمت قليلاً. عادل أنت مش سامعني. كان الغراب يواصل القفز رافعًا رأسه إلى السماء، وكانت الذبابة تستلقي من التعب، استعدادًا للموت. عادل.. رُد عليّ. وقفت نهاد، ورأسها مائل قليلاً، تنظر إليّ في تصميم. كانت الفرصة مواتيةً للانتقام، لأخذ ثار أبيها مني. عادل.. أنفك بينزف.. أوعى ترفع رأسك. وقفت تسند رأسي وتضع منديلاً على أنفي. عادل.. أنت بتمثل عليا التعب؟ انزلق الوعي للحظات، ثم عاد إليّ. أنا آسف.. أنا مش واخد بالي. كان صداعًا طفيفًا، وكانت نهاد رقيقةً إلى أبعد حد. تسند رأسي بيدها وعطرها الممزوج برائحة جسدها يخترقني. اقتربت أنفي من مسام جسدها. في طفولتي، كانت رائحة عمتي ناعمةً وهي تحتضنني في ليالي الشتاء. تقول، لنتدفأ بأجسادنا وتحرك أصابعها فوقي وتدلك أعضائي وتلتصق بي بإفاحة. تغمض عينها وتموء كالقطة. أنت شكلك حبيت وقفتي كده؟ ضَحكتْ بخفة. أمسكتُ المنديل من أصابعها. أنا كويس.. أنتى اللي ما صدقتي. نظرتْ في اعتراض مائع

وابتسمت في دلال. كنت أشعر بالنزيف، وقد تيبّس الإحساس في داخلي. عادل.. مالك؟ أنا آسف يا نهاد.. أنا آسف. آسف على إيه يا ابني أنت؟

كانت الحقيقة على لساني. ثنائية القتل والحب. تهيأ لي سهولة الجهر بهما. كان الآخر يجلس وراءها على مائدة منفردة، يشير بيده لي. علامة النفي، ثم أشار إلى جسده، لأنتبه إلى قميصي الأبيض وقد هربت إليه بعض قطرات الدم ونشعت فيه. وقفتُ. أنا رايح الحمام. هزت رأسها. تحركت ونزلت أدراج الطوابق السفلية، لا أعلم بالضبط ما تحوي، والحمام يقبع في المستوى الثاني، فسيح المساحة. وقفت أمام الحوض، أدرت الحنفية، ومسحت بأصابعي بخفة على الدم المقطّر فوق القميص. وللحظة، تلفت فلم أره. نظرت إلى المرآة، فرأيته. كان المندوب يقف خلفي تماماً وفي لحظة لم أنتبه معها، تحركت يداه بحبل سميك ولفّه حول رقبتي، في ثانية، حين حاولت الإمساك بالحبل، لم أجده خلفي، وفي ثانية أخرى، ما زال على المرآة يعصر الحبل، وأحاول الهروب منه. تراجعت أنفاسي، وتحركت إلى الخلف قليلاً في محاولة للتخلص من الخناق، بمنظور يصب في داخل المرآة، لم أجد المندوب حيّا إلا داخلها. كان موجوداً بحالته المادية هناك فقط. لمحتُ الآخر ملقى على الأرضية. أنفاسي تنهزم، تركت المطواة في البيت. حاولت التركيز في صورة المرآة، فقفزت إلى الخلف، فاصطدم رأسه بالحائط بقوة. حركت رأسي إلى الخلف، فخبطت أنفه، بدأت أنفاسي تعود، فتراخت يداه، فانتزعتُ رأسي منه، وأعدت الوضعية معكوسةً له، ما زالت رؤيتي تصبّ على المرآه، أحكمت الخناق، بينما كان يحرك يديه طالبًا للعون، ويدي تواصل العصر. تراخت حركته وسقط الكاب عن رأسه. فكان مندوبًا آخر! خرّ على الأرضية داخل المرآة. تلفت حولي في الفراغ ومددتُ يدي إلى الأرضية لألمس الجسد المُلقى، بعيدًا عن صورته في المرآة، فلم أجد له

ملمسًا، لم يكن له وجود! نظرت إلى الفراغ، ثم إلى الجسد المادي المحبوس داخل المرآة!

تلفّتُ إلى الآخر المستلقي، وتبدو عينه متعبة. أنت بخير. أنا كويس.. أنا كويس. عندما نظرتُ إلى المرآه، كان جسد المندوب قد تبخر منها.

لمحتني نهاد، وعيناها تحلقان في توتر. مالك في أيه؟ نهاد لازم أمشي حالاً. حصل أيه؟ مالها رقبتك.. مجروحة ليه كده؟ اقتربتْ مني، فأمسكتُ يديها بغلظة. نهاد لازم نسيب بعض.

في الخارج، كانت الغربان تحلق في الشارع، وأفراد من الشرطة يقتربون منهم، ورسالة على هاتفي من أبي، مرسلة منذ ساعة. كيف لم أرَها إلا الآن؟! وهناك رسالة تأكيد أخرى، منذ دقائق، تحمل اسم نهاد.. رسالة بقتلها. أبي قد جُنَّ تمامًا، ومكانه في مصحة المجانين. لمحت عيناها آثار الحبل. عادل أنت كنت بتخنق نفسك؟ نهاد مش هقدر أشرح لك دلوقت. إصرار إرادته على القتل، زادني تعلقًا بها. أكنت أحبها لهذه الدرجة؟ الأفكار تتخبط والأسئلة تسن وبالي أوشك على الانفجار.

ونسيب بعض ليه.. وعايز تمشي دلوقتي ليه؟ لقد ترجمت معنى كلمة -نسيب- على أنها مغادرة المكان، وليس على المعنى الذي أقصده بقطع علاقتنا، واكتشفتُ أنها على حق.

قطع العلاقة يخفف عنا إرادة أبي، التي تذوقت نتيجتها منذ لحظات. وإن كانت إرادته قتلها، لفعلها شخص آخر غيري، ودون علمي من الأصل! لماذا يطلب مني قتلها وهو يعلم جيدًا برفضي؟

كانت أنامل عمتي تقتحمني وتغادرني، تقول. هناك من الأفعال.. ما لا تفسير له.. تتحرك كأصابعي عليك.. ودون أن تشعر بوقع لذتها

عليك.. إلا بعد زمن. لماذا تهلّ ذكرى أنامل عمتي الآن وتؤجج النبع الراكد؟

هناك صخب في الشارع، والميدان يزدحم بالسيارات رغم عطلة اليوم الرسمية. أتى النادل طالبًا دفع الفاتورة، فيما أصوات آلات التنبيه من رجال الشرطة تبوق في الخارج، معلنةً غلق الكافية والمحالّ المجاورة في المكان.

كانت الغربان تواصل التجمع في الميدان، وفوق الشرفات وعلى السيارات، وتُغطّي التمثال، وهناك شحاذ يضحك بصخب، وبعضها تقترب منه وتقف على كتفه وتنحشر في جيوبه. بدا متكيفًا مع الوضع، بأسنان معطوبة وصياح متواصل.

تحركنا، وأمسكتُ بيدها على غير العادة. هو أنت ماسك إيدي ليه كده؟ كان سؤالاً بسيطًا وصعبًا، ولم أجد ردًّا إلا في داخلي، متمتمًا بعبارة عمّتي. هناك من الأفعال لا تفسير له. حركتُ شفتي بلا صوت. تعالى نتفرج على الغربان.. وهي بتهجم على الداخلية. قالتها في شماتة، وأصابعي لا تزال تضمّ يدها. يالا بينا نمشي.. هنتفرج على إيه؟ قلتها في إصرار، وتحركتُ بها، فوافقتني ضمنيًا وقالت. استنى بس.. ده يمكن تحصل ثورة من الغربان.. والناس تنضمّ ليهم.. وهكون أنا أول التابعين. تحركنا وتركنا ما يحدث خلفنا، لكنها كانت تتلفّت إلى الوراء كالطفلة. كنا أتفرّجنا شوية. قالتها، ثم أتبعتها بعبارات أخرى بلا معنى.

هنا، كان شيء قد تحرر مؤقتًا من داخلي، أو كان مُحرّرًا من قبل، ولم أكتشفه بعد. عضوٌ تدلّى من الجسد، شيء يشبه الخصية. في طفولتي، كنتُ أحسبها كيسٍ جلديٍ لحفظ بولي.

كان هذا الشيء قد تحرر من -الكائن الذي يمشي معي- أقصد الآخر، وظهر بشكل شبه موازٍ لي وله. الآن، هناك شيء يربطني بالآخر -يتدلّى منه أيضًا- كجهاز المراقبة عن بُعد، يجعلني أراه ويراني، وأتوقع ويتوقع ما يحدث لنا معًا.

الآخر غادر جروبي من الباب الخلفي كالمجنون، متحسسًا الرغبة المخبأة الدفينة، وقد بدأ نزيف اللاوعي يتدفق ذاتيًا -تتهيأ قدرتنا على كبحه- خرج، ولن يوقفه أحد. ركب سيارة أجرة، وبدأ أثناء جلوسه يتقلب كالمحموم، كاتمًا على ملامحه مظاهر تلك الحمة.

نهاد تعالى نروح. على فين؟ بيتي. ليه؟ عشان أشرح لك. ما تشرح دلوقت. الرغبة تتكلم من عيني. نظرت إليّ في لحظة -عينها جميلة- تمنيت ألا تنتهي. ألدي القدرة على حفظ تلك اللحظة في داخلي، والحفاظ عليها واستعادتها مرة أخرى؟

أنا واثقة فيك. ابتسمتُ، لقدرتي على تصدير شعور الثقة إلى الضحية، وبمجرد الانتهاء منها. أكون قد نفذت أمر أبي وينتهي كل شيء، ربما أنهى بها سجل مسيرتي في القتل، وأقابله، وجهًا لوجه، وأحصد منه كل المعرفة. ولكي أحافظ على شعوري هذا قدر الإمكان، ساعدتني الظروف على ركوب الوسيلة الأسرع من التاكسي، وهي السرفيس. في ظل جنون قيادة السائق المتهورة، التي تأقلم معها الركاب، كنت أفكر وأحاول حساب توقيت وصولي بالتزامن مع الآخر. هو يحاول الاحتفاظ بهذا الشعور أيضًا، ولا يريد الهروب منه، وأنا أحاول التفكير في توقيت التزامن معه. ففي تلك اللحظات تتباين كل التزامنات. هو يقترب من مقصده، وأنا أوشكت على الوصول.

كانت الشوارع مزدحمة، وكلها تحولت إلى خطوط مضيئة من الذهب. ومن الأعلى، من السماء. يرانا أبي من داخل طائرته الخاصة - هكذا تخيلت- يراقب صراعنا في الوصول إلى مقصدنا، وربما لا يرانا من الأصل.

نزلنا من السرفيس وتمشَّينا قليلاً، ورائحة ندى المطر تداعبنا، وبرك المياه ترمي كالأفواه الفاغرة. كانت عمتي تمسك بيدي وتسير بجانبي وتقول. لا تدهس تلك البقع، فربما تبتلعك إحداها إلى حياة أخرى لا تعلمها. وكان الآخر قد أنهى حساب سائق التاكسي بعد أن نظر إليه بتصميم، فألجم ذلك فمه عن فتح قصيدة رثاء الأجرة القليلة وارتفاع أسعار الوقود. تمشَّى قليلاً حتى وصل إلى البيت.

صعدنا إلى الشقة، وبدأ التوتر يحرك جفوني قليلاً. دخلنا إليها. بقالي فترة مجتش عندك من ساعة موت بابا. السيرة تجد طريقها إلى حديثنا دائمًا. الله يرحمه.. أنتي واحشاني. حضنتها ولم تمانع، ثم تحررت في نعومة وقالت. مش هتعزمني على حاجة نشربها.. بدل اللي راح علينا ده. خلعنا الجاكيت، وأمسكتْ ريموت التلفاز، وجلستْ على الكنبة. نشرب إيه؟ عندك بيرة. قالتها في سرعة. تقريباً.. هشوف.

كان الآخر يعرف الطريق، فقد حفظه منذ الطفولة. كان يقفز صاعدًا على تلك الأدراج الضيقة، التي ازدادت تقلصًا عن الماضي، حتى وصل إلى مقصده. حلمه الأبدي. رن جرس الباب، فتباطأ الزمن وانكمش المكان. فتحت عمتي الباب، فتوقف الزمن. وقفت تنظر إليه، تتأمل ملامحه. لم تستغربه، بل كانت عيناها تفحصانه بعناية. كنت أشعر باضطرابه المزمن واختلال ضربات قلبه. أرى عينيها العميقتين، وأرى شعرها البني المجعد، وأرى فمها الدقيق. صافحته، فاقترب وقبّل

وجنتها، وحاول الاقتراب من شفتيها، فلمس بالكاد طرفها، ثم احتضنها، وأصابعه تمسح حواف خصرها. إنت غايب بقالك زمن؟ المهم إني جيت لك. انتظرتك كتير أوى.. من زمن لم أرَ نظرة عينك.. كأنك نسيت خالص الماضي.

لنتصوّر أن عمتي تخاطبني الآن وكأنني أرتدي جسد الآخر. كما حاولتُ الشرح من قبل، ذلك الشيء المتدلي -كجهاز مراقبة- يتيح لي النظر من عين الآخر. هي ليست مجرد حاسّة، كما يُقال عنها في أفلام الخيال القصصي. لا، بل أتكلم عن خاصية أشعر بها، يتأقلم عقلي عليها مع الآخر. وجدت بالكاد أربع زجاجات في الثلاجة، واندهشت لأنها تتطابق معنا الآن، نحن الأربعة، في هذا المشهد. أنت مش هتشرب يا عادل. قالتها نهاد وهي تمسك زجاجة البيرة. كانت تشاهد التلفاز، وهو يعرض مشاهد لتجمّع الغربان وإجراءات وزارة الزراعة والبيئة، مع ظهور كلمة عاجل مكتوبة باللون الأحمر أسفل الشاشة. وكل ذلك من أجل بعض الغربان التائهة. قالتها نهاد في شماتة. كنت بدوري أحاول الاحتفاظ بهدوئي، مستغلاً فترة السكون للتركيز مع الآخر.

جلست عمتي تتأمل الآخر، كأنها تبحث عن شيء فيه، متفحصةً إياه بلغة الصمت. النظرات أربكت الآخر، ولم يتوقع أن يُراقَب بهذا الشكل، وكأنها تحاول الكشف عمّا يُبطنه. تشرب قهوة.. أقوم أحضرها.. عارفة بتحبها من إيدي. لم تنتظر من الآخر جواباً. قتلت الصمت بتحضير القهوة، وتحركت بخطوات رشيقة تهز بها خصرها الثمين، وتهز معها ذكريات الآخر. الماضي الذي حاول إخفاءه أو تحويله إلى حاضر يساعده على العيش. هناك من الذكريات، رغم طلاوتها وطازجتها، تُدفن مع الزمن. مهما كانت مؤثرة، فالوقت كفيل بها، يأكلها ببطء.

عادل احكي لي.. عملت إيه؟ في إيه؟ أحنا متقبلناش من آخر مرة.. إلا في عزى بابا. ولا حاجة.. الحياة من غيرك ولا حاجة. ابتسمت كعادتها، وابتسمتُ لابتسامتها، لكن بالي الآن مشغول بالآخر، الذي جلس يراقب الشقة، ويحرك راحته على فرش الكنبة الناعم. كانت ترتمي هنا، وتسند يديها، وتشبك أصابعها. كان فوقها، وكان تحتها. كان في كل الأوضاع يجاهد، ليهدئ شتات هياجه، حتى لا يقذف في سرعة وينهى الأمر. كيف حاول نسيان ذروات الجنون ودفنها مع أخريات؟

قالت نهاد كلامًا كثيرًا. أهز رأسي وأشعل سيجارة بطرف الأخرى. النساء يتحدثن عن تفاصيل لا تنتهي، من بداية يوم الدفنة وردود فعل الأقارب إلى التدبير في تجهيز مراسم الدفن. تخيل يا عادل.. عيلتنا لا تتجمع إلا في مناسبتين.. لفرح أو لدفنة.. هناك منهم.. لم أرهم من مدة طويلة.. الملامح تتغير والنفوس تشيل من التلميحات سيئة النوايا.. فى همسات وضحكات مكتومة. كانت تحكى وتسترسل، وكعادة النساء. لهن القدرة على الحكي، حتى في أدق التفاصيل، فاستغللت ذلك للعودة إلى الآخر، بينما صينية القهوة تقترب منه، مصحوبة برائحة نظرات عمتي التابعة لكل التفاتة له، من حركة الفنجان إلى فمه، لعودته إلى راحته. هدوء عمتي مصطنعًا، ظاهريًا، أو بالأدق وعيًا صاخبًا بالحياة، كلفها فشلاً في زواجٍ لم يستمر. هناك من الأمور والأحداث ما لا مسميات له، تقترب من أحد الأطراف وتسأل عن سبب الطلاق، فلا تجد إلا إجابات شائعة ومعروفة للجميع. كانت عمتي في مرحلة العشرين من عمرها، عندما تقدم لها زوج مناسب لا يُرفض، لمميزات كانت في زمانها كافية للقبول. قبلت وتزوجت، لكن لم يمر عام حتى كانت مطلقة، تعددت الأسباب، وفشلت محاولات الأهل في التهدئة. وبعد رحيل كل من في البيت، وبقائها معي. كنت أرى الآخر يتسلل، يتقرب، يختفي

وأحيانًا أراه في أحلامي. كان شبحًا تستأنسه عمتي وتبخّر له الشقة، بروائح عطرية خارمة لكل طبقات جيوبي الأنفية، وتذبح له الأرانب، ثم تمسح الدماء بأصابعها، تلامس بها جسدي، الفراش وملابسها الداخلية. كانت تحاول أن تمسح ذنبَا وتجدد عهدًا جديدًا بعدم الزواج مرة أخرى. رفضت بعدها كل عروض الخاطبات الناظرات إليها بشفقة، ويمصمصن شفاههن علامة على الدهشة، لضمور معالم جمال وجهها. وفي يومٍ، كنت فيه في أحد الدروس الخصوصية -عرفتُ من الآخر ما حدث بعد ذلك بسنوات- كان الآخر في مثل عمري تقريبًا، وأتى يزورني، وكانت تتحرك أمامه كشعلة من اللهب، يكاد يراها عارية أمامه رغم ما ترتديه من جلباب ويكاد عضوه يمزق حوضه. تتحرك وترتب اشياء في البيت، وعندما لمحت نظراته. قالت له. لن تستطيع. وأخذت تسبه وتصفه بأعتى الألفاظ الجارحة، فتقلصت هالة الهيجان اللحظي وتخلّت عنه، فتحت الباب وفرت هاربة، ليرتخي عضوه وكأنه نبتة دقيقة لطفل رضيع.

الله ما يوريك يا عادل.. وإلا خالتي كانت.. ، وتستمر نهاد في السرد، وقد أحلّت البيرة عقدة لسانها، فأخرجت كل ما يعتريها.

وكان الآخر يسترجع تلك الأيام. ذاكرة تعبر في ثوانٍ، وهي في حقيقتها أحداث عريضة. وفي يومٍ آخر، تسلل إليها وهي ناعسة مترامية على بطنها، فاشخة قدميها على الفراش. تكلمت وكأن لها عينًا ثالثة في مؤخرة رأسها، قائلة . لقد حاول طليقي لسنة كاملة ولم يستطع.. ما زلت عذراء، وصرخت في فخرٍ وانتصارٍ مريعٍ، هزّ ارجاء البيت، فلم يجد الآخر إلا أن يقفز فوقها، واضعًا راحته على فمها، وباليد الأخرى كبل يديها. وانبسط بركبتيه كهرم على ساعديها. لثوانٍ ثبت مكانه، وهي تقاوم بضراوة، ثم

تحركت بركبتها، وضربته من الخلف، فآلمته، فتحررت منها ضحكة جنونية. لقد تمنى قبلك. زادته مقاومتها هيجانًا غير محتمل، فقرّر أن يمسكها ويسحبها، ثم يسندها على دلفة الدولاب. أقرب مصدر عمودي منهما. وقفت وجسدها مستندٌ إلى الدلفة، ويداه تطبقان على فمها، فهو سلاحها الفتّاك. أمسك كفّيها من جديد خلف خصرها، وأسند بوزنه عليها ليشلّ حركتها، محذراً من حركة كعب قدميها. وبدأ يقترب بعضوه ويلتصق بمؤخرتها. كانت تواصل التفوّه، لا تسكت. لا تتعب، والآخر يواصل حالة الاندماج والتمدد، أحسّ باقتراب الطفح، فابتعد عنها خطوات إلى الخلف وهو يدلكه. التفتت فاغرة العين، وقد ابتلعت لسانها، وهي تراه ينزل بنطلونه وتقفز منه قطرات المني كالرزاز. تجمّدت كأنها ترى ظاهرة غريبة، نادرة الحدوث. الغريب أنها شتمته وعنّفته، ولكن بصورة أقل عنفوانًا من قبل، وكأنها تلومه ولا تلومه، تقوله له. يا ابن الكلب.. يا واطي، وهي تعنى مرادفًا آخر للإعجاب به. منذ تلك الحادثة، لم تتكلم مع الآخر. وعندما كان يطلب الطعام. لم تنظر إليه، بل تحضره وتشير برأسها ويديها كالخرساء. كنت حينها لا أعلم شيئًا عمّا يحدث بينهما، ولم يحك لي ما حدث بصورة مباشرة. كنت أحسبه يتخيل، ويحكى لي على سبيل الفانتازيا الجنسية عن المرأة التي تكبره. ولم أرَ حكايته إلا بصورة ضبابية، كضرب من الخيال الشاطح منه. الآن أرى الصورة أكثر وضوحًا، ومنه عرفت، ولأول مرة، حقيقة تلك المرأة.

أنا عمالة أحكي وأنت تهزّ في رأسك.. يا فرحتي بيك. أنا بكون مبسوط.. لما أسمع نبرة صوتك اللي واحشاني.. فساكت بسمعك. كنت أنتظر وأحاول الاحتفاظ بقوتي، فكل شيء ينتهي عند القتل. الفعل المقدس، والذي منه يتبدل العالم. كانت نشرة الأخبار ما زالت تنتقل بين

البلاد المنكوبة بالحروب البينية. إنها صلاة التطهر عند الله. التضحية في سبيل الوصول، والوصول إلى أبي يحتاج تضحية. لقد ضحّى نبيِ بابنه من قبل، وعندما تطهر الفقهاء من محاولات التصحيح. أبدلوا القصة إلى المألوف بإنقاذ الله له، وهذا لم يحدث. لقد ضحّى لله. قتل ابنه. القتل فعل تضحية. ندنّسه بالمواربة وأحيانًا بالكذب. كلنا نعلم، ولو من باطن إيماننا. أن التضحية مفتاح الوصول. أنهى الآخر في داخله أو داخلي، وصلة فلسفته، ولم أفهم بعد كيفية التعامل مع تلك الحالة من المغناطيسية المتبادلة بيننا، هو يُلقى بوجدانه في داخلي، كأنه يتخلّص من حملٍ، ود البوح به. لم أفهمه منذ ظهوره. هناك أشياء تحدث وتبدو مألوفة لنا، لكنها ليست كذلك.

سكتت وكأنها تحاول اختيار الكلمات. عادل أنا مش من طبعي أسألك عن حاجة.. بس في عندك هنا حجرة مقفولة.. ومحاولتش أعرف منك فيها إيه.. ومش من حقي أعرف.. أنا آسفة.. تقريبًا دماغي رحرحت مع البيرة. هنا جوهر القتل. السؤال والإجابة، وهنا يتدخل الآخر، وكأنه يعكس وضعيتي، فأكون جالسًا أمام عمتي وأحتسي القهوة معها، بينما هو يجلس مع نهاد. تشتّت المكان. وذهني الآن يريد الثبات على وضعية واحدة، ويترك التفكير في أي شيء آخر. عمتي تبتسم وعينها تأكل ملامحي. هنا يأتي صوت الآخر، الذي يحكى أنه، ذات مرة، دخل على عمتي وهي جالسة تقشر الخضروات، وذكرى فشل اقتحامه تؤرقه، ويدفن في داخله انتصارًا هشًّا. وطيفها منذ تلك الواقعة، ما زال يحاصره في كل ركنٍ، ومن وقت لآخر، تفلت منها ضحكة فاضحة وتقول. لقد حاول مثلك وفشل.. لقد حاول قبلك في مرات عديدة. ثم تفلت منها ضحكات متتالية. حاول الاحتفاظ باللامبالاة، لكن الضحكات توالت

كطلقات الخرطوش. كانت تجلس على الترابيزة، تمسك السكين، تقشر وتنظر في عينه.

لا أبدًا دي أوضة حاطط فيها البنك.. اللي بشتغل عليه.. زي ورشة نجارة صغيرة كده على آدي.. تحبي تتفرجي عليها. هزّت نهاد رأسها وابتسمت. هنا أشبعت وأشعلت السؤال الحائر بإجابة. أبي أحرق فضول سنوات عمري، حتى صارت رمادًا بلا جدوى، وعندما ألقى بقايا الشوق لرؤية، حجب ذاته وأمر بتنفيذ أوامره، التي كانت في بادئ الأمر مشروعة ومناسبة لذاتي. أما الآن، فقد دبّت العشوائية، وصارت التضحية ضرباً من الطموح العدمي.

لم أفهم كيف حدث ذلك مع عمتك تحديدًا. هل كانت السكين أداة التحفيز، أم كان صوتها يحرك أوتاراً في داخلي؟ كانت الشراسة تتجانس مع وجهها الدميم، الذي تبدل في لحظة إلى أنوثة طاغية، ربما كانت تدرك ذلك، وربما لم تدرك، أن صوتها يخفي هياجًا عاتيًا تسلل إلى داخلي وحفزني.

عدت إلى نهاد وتركت الآخر مع عمتي، أو بمعنى أصح، استعدتُ وعيي منه وحصاره لي الآن، لكني أريد استكمال حكايته مع عمتي رغم عهر تفكيره معها، عدت إلى نهاد وأدرت مزلاج الباب وفتحت الحجرة فأضأت النور بها. وكانت كما تركتها من قبل. إنها من خلقي. خلقت عالمي. مدينة من البشر تعيش في دنيا مفقودة. مدينة تعيش على إرادتي، وتنعم بسحر الإرادة. بسطت منحدراً من أعلى وأنزلته إلى هضبة شاسعة، وأسقطت منه نهراً ركد كمستنقعٍ نائمٍ على كف يده. كانت قدسيته تنبع من روح البيوت الحية العامرة، المرصوصة على ضفافه. هناك على مبعدةٍ منه. ناطحات السحاب، التي شكّلت صفًا موازياً من

الهيبة. فمنذ بداية صعودها إلى الأعلى، ورؤوس أهل المدينة بأعناقهم تشرئب إليها، وهي تتوالد كالسرطان، فتقتل رؤية الأفق اللانهائي الممتد.

تسلل من عين نهاد الضياء الأبيض، وكأنّي أراه لأول مرة. لقد انطفأ منذ أعتدتُ القتل، وعيني لم تعتده إلا بعد ظهور أبي، الظل الذي حجب الأبيض عن عيني، أو كان بديلاً عنه، أو سؤالاً آخر أكثر تعقيدًا شغلني عن الضوء الأبيض، وساهم في حجبه عني، وربما متعمدًا.

عين عمتي تتمادى في اللوعة، وامتزجت عينها بعين نهاد. وهنا يقتحمني الآخر من جديد، وينقلني معه إلى الماضي. يقول. لم أفهم كيف تحركتُ إليها، وهي تصرخ وتتف في وجهي، تفة لزجة، والسكين في يدها. أظنه كان مجرد أداة للترهيب. أمسكتُ يديها، فأوقعنا الصينية بما تحمل، وكانت مقاومتها أقل من المرة السابقة، لكنها واصلت الكلام بلا توقف. سلاحها الفتّاك. كنتُ أحسبه في البدء مساعدًا مُهيّجًا، لكنه تحول الآن إلى عبء، رميت السكين من يديها، وقلبنا الترابيزة بالمقاعد، وجسدها يحني على الأرضية، فتقاوم قائلة. يا ابن الوسخة مش هتعرف.. كان غيرك أشطر.. لسه مجاش ولا عاش اللي يقدر يعملها. كانت تقاوم بهذه الوضعية، وسندتُ يديها. بكلتا يديَّ، فوجدتُ خيارة ضخمة كالقضيب، فأمسكتها، وبكل قوتي حشرتها في فمها لكي تسكت. باغتتها الحركة، فسكن صوتها، ورخي جسدها عن المقاومة، غير مصدقة لهذا المصدر المجهول الذي اقتحم فمها بعنوة. لم أدرِ بعدُ ماذا أفعل بها، سوى محاولة تحريكها بيدي خوفًا من خنقها. حركتها في لزوجة، فاسترخى جسدها تدريجيًا وأغمضت عينيها، فحسبتُ أنها تخدعني لتأخذني على حين غرة بعد ذلك. أطلقت يديها وملست على خصرها، فأمسكت أصابعها الخيارة وحركتها في استحواذية ناعمة. جرتها من

القماشة الصغيرة المبتلة وأقحمت في الفيض الساخن، وأنزلت في نشوة، ثم واصلنا الالتصاق والخيارة تختار لها فتحات أخرى.

رمقتني عمتي، والمشاهد تتواصل، وعين نهاد تواصل فحص المدينة، وجسدي يتهيأ الآن. كيف فعلتها يا عادل.. كيف صنعت هذا؟ كان سؤالاً وجودياً لا إجابة له. قلت. مش عارف.. حقيقي مش عارف.. في غيري كتير عملوا كده. بالشكل ده وفي مصر.. لا أظن. قالتها نهاد في إعجاب، وما زال الضياء في عينها. وعين عمتي تواصل التحرش، والآخر تختلج بواطنه، وبدأ يتنفس في داخلي، كأننا فعلياً شخص واحد. لم نصل إلى هذا التجانس من قبل، وكل محاولات التفسير تختبئ الآن. تحبي أوريكي حاجة هتعجبك؟ ياريت. قالتها نهاد بحماس ظاهر. أغلقتُ الباب علينا وأطفأتُ النور.

العتمة سرّ الوجود. في البداية كانت الظلمة. انقباض القلب. لحظة أزلية حدثت من قبل. في عتمة الشجرة المقدسة. من الركن، تسلل الضياء الأبيض من وراء التلال، وألقت ظلاله على المدينة نوراً قمرياً. هناك، جلس بعض الأطفال على ضفاف النهر النائم في العتمة. بينما تتعالى من بعيد أصوات الأهل تنادى عليهم. كانوا يترقبون المتوقع، فركضت السيارات هاربة إلى أقرب مخبأ لها. أغلقت المحالّ أبوابها وأنزلت المزاليج بإحكام. واقترب البعض من وراء الواجهات الزجاجية، منتظرين المتوقع. هناك، ومن المنحدر الأعلى. خرج الفيض الأبيض من ثقبٍ في بطن الجبل. يزحف ببطء. يثير الهيبة. يأكل الأرض، وينحدر من الهضبة. مفترشًا طبيعته. راقبت نهاد المشهد وعينها محملقة بانبهار.

وعين عمتي تواصل احتضان عين الآخر، تتكلم معه بعينيها، وتستعيد من الماضي مشاهد معه. تقول بعينيها. لم أصدق منذ اقتحامك اللذيذ..

لذة الحضن والاحتواء.. كان زوجي السابق جاهلاً بلغة جسدي.. هو الشهادة لله.. لا سابقة له مع أنثى.. كعادة عذرية الرجل الشرقي قبل الزواج.. لم يكن هذا.. على أي حال.. وصمة عليه أو نقطة سوداء فيه.. هو يُشكر لأنه لم يغتصبني كحق شرعي له.. كما يفعل الآخرون.. لا.. لم يفعلها.. بل إنه بعد ذلك.. اخترع سببًا للطلاق... حتى تاهت معه حياتنا.. هو حاول بكافة الطرق.. أن يروض من مزاجي ويكبح من لساني.. لكنه فشل وبمرور الوقت.. ترسب في داخلي اتفاق ضمني.. بكون الجنس هو السبب الحقيقي في دمار حياتي.. وأنى مجرد مخلوقة من بيئة مختلفة.. لا تنتمي إلى طينته.. تعرف (نظرت إلى الآخر، ثم دون صوت أكملت) منذ ظهورك وأنا أتمنى تلطيخ جسدي تحت قدميك.. أراك منذ قدومك إلى البيت كضيف دائم.. هدية من السماء.. نظرات عينك.. طريقة إبتسامتك.. انتصابك العفوىء.. كلها بدايات.. لمحت إلى نهايات.. كيف لي أن أقول لك وأبوح لك.. كيف أسمي هذا الإحساس تجاهك؟ كنت أسترق اللمس.. لمسك وأنت نائم.. تقبيلك في أي مناسبة.. كان في داخلي شعور ينمو ويموت معًا.. فتيل يشتعل ويحترق.. كيف لي أن ألمسك وأنا عاجزة.. كيف أفكر في أمرك وأنا نافرة.. كنت مريضة بمرض لا اسم له.. كنت أحاول الاقتراب من الله.. أُصبِّر حالي بالصبر وكنت كلما كبرت أمامي.. ازداد إيماني بك وكأن الله أرادني لك وهيأ القدر لنا .

حاولت الخروج من حيز عينها المسلطة والعودة إلى نهاد، وترك الآخر معها. الأبيض ما زال يزحف وينحدر من الهضبة إلى الأخدود الصخري المطل على المساحات الخضراء الفاصلة بين ناطحات السحاب والبيوت الصغيرة المستكينة. يفرش مساحته ويفرض لزوجته. كان طريقه واضحًا ومحددًا، كأنه يعرفه من قبل. التربة تستوعبه. تروي منه. كل العيون

مسلطة وتختبئ. حرَكت بيدي الشمس، وهي في حقيقة الأمر كشاف ذو لمبة صفراء، تعكس خيوطًا ذهبية. ونفخت السحاب بفمي فوق المدينة -عود بخور مشتعلاً - ليشكّل ضبابًا هاجمًا أسطوريًا، وأسقطت رذاذًا من المطر -بواسطة بخاخة في يدي- لتطفئ اطمئنانًا على النفوس الجازعة. كانت نهاد تحدّق في تركيز، وفمها يتحرك كالسمكة، تتابع الأبيض الفائض في دهشة. اقتربت من خلفها. جسدها يصهد هبوًا كنار الفرن، كلما اقتربت منه زادت حرارته. خيوط تمتد وتتشعب وتشرنق حولها من الأبيض. تسحبها إليه، وتغزل على جسدها تاثيرًا شفافًا، لم أرَ له مثيلاً من قبل، إلا مع الآخر، الذي استمد تأثيره من داخلي، والآن يحاول الآخر، عن طريق حدقة عيني، رؤية هذا المشهد الأثير. كان الأبيض يحيط بالمدينة ويطوقها، فاقتربتُ من نهاد وأنفاسي تلامس شعرها، لم تلتفت. ولم تكترث. طوقت خصرها. وحركت أجفانها بنعومة، وكأن النعاس يغازلها. عمتي تغمض عينيها، وأمدّ أصابعي لأسند ذقنها. ماذا يحدث؟ من بجانبي الآن، نهاد أم عمتي؟ تقترب نهاد. أحضن شفتيها وأغمض عيني. تضغط على لساني وتطوقه. أفتح عيني. عمتي تلتصق بشفتيها. ماذا يحدث؟ من أُقبل؟ كنت في وضعية تزامن مكاني. خطرِ هذا التصور في ذهني، ثم تلاشى مع الآهات. عمتي تهتز بشراسة. قضيبا بين جسدين. رأيت في أفلام البورنو، قضبانًا تتشارك في جسد، أما واحد يخترق جسدين في آن واحد، فذلك تصور يفوق الخيال وينكحه. خطر هذا الخاطر أيضًا، ثم تبخر بدوره. لذة فائقة، التنقل بين جسدين، وهل من الجنون أن يزيد العدد إلى ثلاث، فرباعٍ، وإلى ما لا نهاية؟ قضيبُ كونيّ أكبر من حجم مجرتنا. يضخ أرقامًا فلكية لا مرئية من السائل المنوي، ومنه تتفاعل الأيونات وتتخلق الموجودات. خاطر مر وعيني على السماء. وكنت أنتظر الإجابة عن السؤال الأعظم، في أي

منهما، سأقذف أولاً ؟ حاولت التملص من ذهن عمتي وجسدها العفي، والهروب إلى جسد نهاد الطري البكر، ولكن سريان اتصال الجسدين فاق كل صمود. في لحظة التمكن من الأعلى، أجدني مُنقلبَا إلى الأسفل. كانت عمتي تفرض سطوةً جنسيةً على الآخر، تبدو كالرائحة مفرطة التركيب، تفرض وجودها بتأثيرٍ غير مريحٍ، فأوشكت على القذف. فأنزلت أرقامي اللامرئية، فصرخت عمتي بفرحة. من هنا تبدأ المعجزة الحقيقية، عندما عدتُ إلى نهاد. كنت أفكر في لحظة دنوّ القذف. خاطرا مُلحًا بطبيعة الحال، مع التصاقنا وتزامنًا مع التصاق الآخر بعمتي. لماذا لم أقذف الآن؟ تخيل الموقف معى في معادلة تقول، تزامن احتواء جنسي يساوى قذفًا متزامنًا. من هنا بدأت المعجزة. أبعدتني نهاد عنها بكف رقيقٍ، وأنزلت ملابسها المتبقية، وغرفت بيديها الأبيض، ومسحت المادة على جسدها، لتجرى على جلدها. كانت تواصل التلطيخ. الانجذاب العفوي. الامتصاص اللاإرادي، هي تتواصل مع الأبيض بشكل ما، من هناك بدأت اللغة البدائية، لغة الأشياء الأولية. أشعر بها ولا أفهمها. كانت رؤيتي لها في السينما، في أول مرة، وهي تخرج من الضوء. لم تخطئ الحقيقة، لقد حدثت المعجزة؛ ضوء يتحول إلى مادة، والمادة تتشكل إلى إنسان. لقد أعدتُ قصة الخلق. لم تكن تهيؤات منذ طفولتي. انجذابي إلى الضياء الأبيض، وكل محاولات القتل، أدت إلى الخلق. كل تجربة تؤدى إلى الخلق هي موت. موتنا في الدنيا يساوي خلقًا آخر. الخلق، إعادة تعبئة الموت في صورة أخرى، لا ندركها إلا بالمعجزات، لذا، كان يعرف أبى كل ذلك، فقتل معجزة الابن في سبيل تحقيق كناية العليم بكل شيء.

كان القتل إعادةً لمنظومة الخلق، وإعادةً لخلق الأب بصورة مختلفة. أنا، مثلًا، عشتُ من دونه منذ طفولتي، وكأنني خرجت من النور وحيدًا،

من نطفة منه أو من غيره. هذا لا يهم الآن، ولا يعنى لي شيئًا إلا كصفة تلتصق بهويتى الشخصية، ثم أُلصقت بي صفة القاتل من أجل المادة، ولم أقتل من أجل المال إلا صدفةً، تلك الصدفة البائسة. فحاول أن يزرع بداخلي تلك الصفة، أننى خلقت من أجل القتل، وأن ما حدث وما جرى في الماضي لم يكن مجرد صدفة، بل كان كله في سبيل إذلالي وتركيعي له.

تجردتُ من ملابسي وزحفت إليها، وكل الأفكار تتخبط، تتركب، وبدأت الرؤية الضبابية تغشى عيني، والأبيض يسري إلى معصمي ويزحف إلى جسدي، لم أدرِ، في هذا الوعي الضائع، ماذا يحدث في جسدي من تحولات ومحاولات، فقد كان يعمل بكيانِ مستقلِ عن عقلي، كنتُ في حاجة إلى الآخر الآن، ليلقي نظرةً من بعيد، وأرى من خلال عينيه ما يحدث. فأراقب جسدي عند التحول لأصدق ذاتي. كنا المادة البيضاء في صورتها الأولية. الأبيض الخام. اختلطنا، ونهاد تشهق بلذةٍ مكتومةٍ، عاصرة شفتيها. كانت ليلةً طويلةً لا تُنسى.

***

32

في قرب الصحو

كان عقلي يعمل، ليس عقلي تمامًا، بل جزءَ منه كان منفصلاً، وكأنه سقط في رحم نهاد ليلة أمس. هناك استيعابات للأمور فاقت الواقع، وأحداثٌ مترتبةٌ وقعت، أدّت إلى تأمل فتحة الرحم بكل هذا الوضوح، وكأنني من قبل، كنت ألفّه، وقد نقبت فيه باحثًا عن صاحبه، وسلكت طريقي من اللب إلى الجسد، ورأيت المعجزة.

ارتخيت واقترب وعيي من التركيز. فتحت عيني على حركة حواف الستارة، والنهار يدهن الحجرة بضوئه. نهاد نائمة بعمق، وصوت أنفاسها ينساب بنغمة رتيبة. في أي يوم نحن من أيام الأسبوع؟ حاولت التركيز قليلاً واستجماع تفاصيل يوم أمس وما قبله، لا يهم. تحركت إلى خارج الحجرة، ودلفت إلى الحمام، وتبولت في متعة حقيقية، وبقوة هيجت خصيتي، بينما الزبد الأصفر يرغي في قعر المرحاض. مددت يدي إلى الحائط لأسند جسدي وأحفظ توازني وسط هذا الغمر المتدفق.

كعادتي، أدرت التلفاز ودخلت إلى المطبخ. في أي يوم نحن من أيام الأسبوع؟ مش مهم. سلقت أربع بيضات وأخرجت الجبن البراميلي وعلقت الماء في براد الشاي. ناديت على نهاد، ثم جلست أنتظرها بينما الأكل أمامي تفوح منه رائحة محفزة.

أسفرت جهود وزارة البيئة، بعد عقد اجتماع مغلق، عن التوصل إلى نتائج لمعالجة انتشار طائر الغراب في مناطق متفرقة.. وقد رصدت كاميرات الهواتف والمواقع الإلكترونية أماكن تجمع هذه الطيور، فيما تحذر وزارة الداخلية المواطنين وتناشدهم بضبط النفس عند رؤيتها. كان المذيع يتحدث بحماس لا أعلم مصدره. في أي يوم نحن من أيام الأسبوع؟ خرجت نهاد من الحجرة مرتدية جلبابي، تمشى في تثاقل ثم تجلس على الكنبة. تمسك الهاتف وتقلب صفحاته، وتتثاءب. إنتي مش هتفطري؟ مش جعانة أوي.. بس عشان خاطرك أفطر. جلست بجانبي ورشفت الشاى بتمهل. قالت. أحب القهوة. قلت. قهوة على الريق؟ مش قهوتنا.. القهوة الأمريكي.. أنا مدمنة قهوة. وأنا مدمنك. نظرت إليّ بعمق، وبدا أن نقطة عينيها تحولت لوهلة إلى الأبيض. وأنا كمان. قالتها وهي تمسح بيدها على شعري، فقبلتها.

عندما ودعتني واحتضنت الصمت، بدت المعجزة وكأنها قد أتمّت أركانها. أمسكت الهاتف وقلبت في الرسائل المرسلة، وجدت رسالة جديدة بتاريخ اليوم من أبي، ومكتوب بها مجدداً اسم نهاد. أربكتني الرسالة رغم تكرار نصها ليلة أمس، وتذوقت قسوة الرفض في جروبي.

رنّ جرس الباب. من يأتي الآن، أيكون هو؟ نظرت من العين السحرية. إنه المندوب. خبأت المطواة في جيبي وفتحت الباب بحذر، مواربًا. افتح يا عادل. واربت الباب. عايز أيه؟ أحنا هنتكلم عالباب كده؟ تعرف لو غدرت ولا حسيت بحركة غلط منك.. هعمل فيك أيه؟ رفع الكاب عن رأسه بحركة استعراضية وقال. أعمل اللي أنت عايزه. أفسحت له الطريق، فمشى أمامي ويدي لا تزال قريبة من سلاحي. لا أمان لهذا العالم.

جلسنا.

_ أبوك عايز يشوفك.

قديمة. ألعب غيرها. أخيراً حنّ عليّ. سكتُ محافظًا على هدوئي، رغم اختلاج قلبي.

_ وأنا مستغني. لم أعرف كيف خرجت عبارتي!

ابتسم. يعنى أنت كنت طالب تشوفه.. ودلوقتي رافض؟

_ اللي هجم عليا في جروبي.. تبعكم؟

أعرف أنه سؤال ساذج، لا يحتاج إلى إجابة. ابتسم ثم قال. مشكلتك دايمًا في المعرفة.. عايز المعرفة من غير ثمنٍ؟ أنت لما بتمرض.. بتقول لنفسك.. أنا ليه أصابني المرض؟ اعتبره نوع من العيا.. أصابك امبارح وأنت عديت منه.. والمرض وارد يرجع لك تانى.

تهديد مبطن بالبطش.

أنت مش عايش لوحدك.. في عوالم مرتبطة بعالمك.. ومترتبة على أفعالك أحداث.. هيترتب عليها أحداث تانية.. أنت حتة ذرة.. لا طاقة لها على الإرادة.. إلا التنفيذ في صمت وهناك أمور.. أحيانًا.. تخرج عن سيطرتنا.. مثل ما حدث لك بالأمس.

نعود إلى لغة الألغاز، التي لا أفهم منها سوى حركة المطواة بهدوء. قلت له. ويا ترى، إن أخرجت سلاحي الآن، ورأى المطواة بين أصابعي. وخرجت عن سيطرتي، فكيف ستعتبر ذلك.. أهي مجرد حركة عفوية من أصابعي خارجة عن إرادتي، أم أنها إرادة المطواة الكامنة بها؟

بحلقَ فيها قليلاً، ثم قال. أنت بتتحكم بإيدك.. لكن لا تملك السيطرة عليها في ردة الفعل.. إيدك أتعودت على القتل.. زي تمام ما إرادتك أتعودت على الطاعة.. والاتنين مش ملك لك.

يداي تتحركان مع الضحية، تنفصلان عن جسدي وتعملان في نسق ذاتي من فعل الحركة. في مرة، بعد انتهائي من القتل. اجتاحني شعور غريب بالتخمة، بالبلدي كده.. خرمان وعايز أشرب سيجارة والجثة أمامي تفوح بالحرارة، ما زالت الروح تتملص منها. قرفصت على حيلي وأخرجت العلبة وأشعلت واحدة ولسه هشد نفس منها، حتى فوجئت بيدي اليسرى تنتزع السيجارة مني، وترميها من النافذة، ثم تمسح العرق عن جبيني، لتشدني بعدها إلى الوقوف. وتضغط على قرينتها اليمنى.. علامة على اللوم لهذا الفعل الآن وأرغمتني على مغادرة المكان بالفعل.

وقف المندوب وتحرك ناحية الحجرة، ثم أشار إليها وقال بطريقة مسرحية. بل وتريد أن تقلد أباك في فعل الخلق.. وتصنع حاجات بيديك

على سبيل محاكاة أوامره. سكت قليلاً وأضاف قائلاً. حياة نهاد مقابل رؤية أبيك. وأشار نحوي ثم تحرك إلى الباب وغادر.

***

33

انتشرت الغربان

وتزايدت موجات التظاهر على استيحاء من قرارات الحكومة، كانت الغربان بمثابة معارضة خرجت عن سطوة النظام، وفقًا لتشبيه نهاد لها. توالت البلاغات إلى الطوارئ عن التجمعات في المناطق الفلانية وانتشرت فرق الوقاية الصحية بملابسهم الفضائية. في البداية، بدا الأمر غريبًا - رؤية أحدهم بسترات تحجب معالمهم تمامًا ، لكن سرعان ما صار مألوفًا، مشهدًا اعتياديًا خلال سهراتنا على القهوة. مركبات الفضاء تجوب المكان كالذباب وفي ذيلها مركبة أمن مركزي، تتولى التأمين الأمني. وفي إحدى المرات، توقفت إحدى المركبات بالقرب من حفنة من الغربان تشكلت في حديقة مهجورة تحولت إلى خرابة. استطاعوا محاصرة الطيور كلها، عدا واحدًا. تحولت أنظارنا إليه وتبدلت مشاعرنا في لحظة إلى زاوية نصرته وتشجيعه على الهروب، وبالفعل نجح في الإفلات منهم، فصفقنا وصفرت الأفواه إعجابًا بجرأته. وتناقلت وسائل الإعلام حكاية الغراب الهارب، وادعى البعض على سبيل النكتة، حكاية الغراب القائد الحقيقي لهذه الغربان، وهناك من أسقط الواقع على ثورة يناير، مقارنًا غموض قائدها بذلك الغراب الهارب، الذي التقطته كاميرات الهواتف وتحول إلى ترينـد شائع في فضاء المصريين، في المقابل، ظهرت تصريحات تزعم أن انتشار الغربان كان مدبّرًا عمدًا، بتحريك من قوى خارجية تستخدم أجهزة حساسة ذات طابع استخباراتي

للتحكم بها. وانتشرت مقاطع فيديو تدّعي الكشف عن تقنيات محاكاة أجهزة التنصت عبر طيور آلية، على غرار تلك التي يستخدمها الروس بالفعل في الفعاليات الرسمية داخل أراضيهم. وهناك من ذهب إلى التفسير الروحي للظاهرة، معتبرًا أنها تجسيد لحقيقة كونية خفية يصعب على العلماء اكتشافها في الوقت الحالي. وخرجت مقاطع فيديو تظهر فيها بعض الأهالي وهم يمسكون بأحد الغربان، بينما تسجّل الكاميرات المهتزة، بحركة عفوية، أصواتًا مألوفة تقارن بين الغربان الأصلية التي عاشت على أرضنا وتحمل جنسيتنا المصرية، وبين الغربان المهاجرة أو المدسوسة بيننا.

كانت تطاردني فكرة الغراب الهارب والحكايات المروية عنه تطاردني كلما ذهبت إلى مكان عام، حتى باتت تشغلني عن واقع جفاف رسائل أبي وما ترتب عليها من عقم تدفق المال. التي لفتتني إلى فكرة مراقبة نهاد بعد مغادرة المندوب في ذلك اليوم.

كنت لا أعرف ماذا سيحدث إن خالفت أمره، وما تبريري إن واجهني بذلك؟ ارتبط هذا التساؤل بمساءلة رؤيته نفسها. بعد ذلك اليوم، بدأت أراقب نهاد دون علمها، خوفًا عليها مما قد يحدث. وفي ظل إختفاء إحساسي بالآخر بعد تلك الليلة، كان السؤال يلفحني. لماذا لم يأمر بقتلها إلا بعلمي؟

كنا نقضي ليالي الاختلاء في تلك الحجرة. قالت نهاد. عندك حق في منع الغرباء من الدخول إلى الأوضة المحرمة. لم يكن المنع مقصودًا. بقصد إخفاء شيء مثير، فهي لا تحوي إلا على مجسّم المدينة، الذي فكرت جديًا بعد اكتماله في هدمه، لإخلاء مساحة يمكن الاستفادة منها، خصوصًا بعد تفكيري في العودة إلى العمل، والاشتغال على المرامات

مؤقتًا. صرخت نهاد. أنت مجنون! تهد إيه.. دي مدينتي خلاص.. أنت صانعها.. وأنت موت من منظورهم.. أكنك مش موجود أصلاً.. من وقت ما فكرت تخلقها. أغرمت نهاد بالماكيت وبالمنحدر الشبيه بالجبل، وسألتني عن تفاصيل صنعه. لكن الزمن والتاريخ لم يكونا يعنيان لي شيئًا يُذكر.

كنا نختلي بها دائمًا، وكانت تحكى لي قصصًا غير معقولة. قالت. تعرف يا عادل.. لما نمنا في شوارع المدينة. قلت. أي مدينة؟ قالت. المدينة اللي أنت خالقها.. كنا زي الآلهه.. اللي نزلت عليهم.. ومارست الحب قدامهم.. فدمرت مدينتهم.. تفتكر لما شافونا وإحنا كده.. بأحجمنا الضخمة.. وبنهز أرضهم.. تفتكر فكروا في إيه.. هل جالهم إحساس بالإثارة ولا بالخوف؟ قلت. هما مش حقيقيين يا نهاد. قالت. متهيألك.. الروح بتجرى في كل حاجة.. حتى لو في حتة طوبة.

دائمًا ما تحكى عن تأثير المدينة عليها، وتسعى إلى تكرار المشهد كما رأته في ليلتنا الخالدة، بنفس الأحداث التي تجلت في رؤيتها الأولى. تقول إنها الحقيقة الفعلية التي آمنت بها، وأدركت خلالها وجود فنانٍ حقيقي مختبئٍ في داخلي. في كل مرة، تروي تصورًا جديدًا لهذا المشهد، وتصف كيف يتطور إحساسه بداخلها. قالت إنه يمثل المحاكاة الإنسانية للحظة بداية الخلق. لم أفهم تحديدًا أي تخريف هذا وأي معنى تقصد. وأكملت القول. ناطحات السحاب في الماكيت تعبر عن الرأسمالية اللامبالية إلا بذاتها، بينما البيوت الريفية ترمز إلى جذور الشعب.

كانت الشهور تتوالى وتتشابه حتى جاء يوم ظهور الآخر.

***

34

كنت في المقهى

مع نهاد، ثم مرّ الآخر من جانبي. تفاجأت لرؤيته، إذ لم أره منذ فترة. توقف قليلاً، فناديته، فصافح نهاد، ودعوته إلى الجلوس، لكنه رفض، وصافحني طابعًا قبلةً على وجنتي، ثم همس في أذني. احذر يا صديقي.

تركني بذهن يبحث عن معنى جملته. قالت نهاد إنها لم تره من قبل، حين قلت لها. كان معنا في جروبي.. إنتي يمكن شوفتيه.. وماخدتيش بالك.. هو صديق وجار للعيلة.

عشيق عمتي، لم أتفوه بها، بل نطقها ذهني. الغريب في الأمر أنني لم أشعر بوجوده كما كنت أحسه من قبل، فقدت إحساس التعلق به منذ تلك الليلة. عند هذا التفسير، انتابني قلق حقيقي. كانت نهاد تتكلم، وأنا أهز رأسي، وعندما غادرنا وقضت معي الليل. كان بالي في مكان آخر يبحث عن معنى من قتل أبيها، جاءني السؤال في اليوم التالي، بعد أن غادرتني نهاد. شعرت بالخسة والدناءة تجثمان على صدري. قالت لي قبل أن تذهب. قبلتك طعمها غريب، ثم تركتني.

أنا قاتل ولدك، ولم يعد في مقدوري كتمان الأمر. لكنني لست بقاتل، ولم أكن يومًا قاتلاً. الضوء الأبيض يبحث عني. وجدني في فعل القتل. سرّ الخلق كامنٌ في فعل القتل. سرّ التحول في تطور قدرتي. الأبيض يسري في داخلي ومعجزتي وجدتها. العنصر البشرى خُلق من الضوء وخرج منه.

أسمع صوتًا في الحجرة. كنت جالسًا في الصالة، وصوت التلفاز يتكلم. صوت كشط على الزجاج يتسلل. مطواتي في الحجرة. الصوت يأتي من هناك. لدي سكينٌ آخر، احتفظت به تحت السجادة. أمسكت به. يدي

ترتعش قليلاً، فاستغربت، منذ متى ترتعشين؟ لا وقت للقلق، الخبرة تحسم كل شيء.

وقفت عند باب الحجرة. أسندت ظهري للحائط. صدى الصوت له سحرَ التخفي. فتحت الباب ببطء، لم أرَ أحدًا ولم أسمع شيئًا.

كان الخيال يشكّل أصواتًا ويستمر معي في التواصل، لكنه يختفي بوجود نهاد معي، بعد ظهور الآخر وتحذيره العفوي، تشكل في داخلي قاعدة الشك الظني، في ربما.

إلى أن جاء ذلك اليوم وعرفت نهاد كل شيء.

***

35

هاتف نهاد مغلق

الأمر لم ينته إلى هذا الحد. كل من له صلة بها اختفى تمامًا من على الفيسبوك، المسنجير، الواتس آب، هاتفت أصدقاء مقربين، أغلبهم قال لي. يمكن سافرت.. هي امرأة مستقلة، وقرار الاستقلالية وترك بيت العائلة، فازت به في وقت وجود أبيها ومساندته لها، مما أدى لفقد عذريتها معي. قالت لي إنها تتحمل نتيجة كل اختياراتها، ولا تلوم أحدًا، ولن تلومني إن لم نتزوج، وذلك زادني انبساطًا وتمكنًا من مدى إتاحة كل الاختيارات لنا. كانت تفكر بضمير نحن معًا وكنت أفكر بضمير الأنا دائمًا.

انشغلتُ في السفر إلى الساحل الشمالي مع الورشة، لقضاء بعض الأشغال التي كنت مجبرًا عليها، في ظل نفاذ كل نقودي بعد استنزاف كل موارد عمتي. كانت لا تبخل عليّ، ولم أشمئز من علاقتها مع الآخر.

في تلك الزيارة، عندما طبطبت عليها ووجدته مرتدياً بجامتي القديمة، لم أثر وأطرق السقف المسلح عليهما. لا. كل ما فعلتُ، جلست قليلاً وشربت شاي الضيافة، وعند مغادرتي وجدت كالعادة يد عمتي في جيبي بنقود، أحاول في كل مرة أن أمسك يديها وأمنعها، لكنها ترفض بكل لين وابتسامة.

شكّلت نهاد حيزًا ليس هينًا في حياتي، في كل ركنٍ بالبيت. قالت نهاد. تعرف في كتاب فلسفة.. بيشرح علاقة السبب والمُسبب. لم أفهم بالطبع ما تقول ولكن أحب الاستماع إلى كل تلك الأفكار منها. أكملت. أحنا علاقتنا كده.. وكل البشر علاقتهم ببعض كده.. حتى الحيوانات. قلت. ولكن الحيوانات لا تحب؟ قالت. بس في سبب بينهم وهي الرغبة. قلت لها. يعنى أحنا زي الحيوانات وأنتي لبوتي. قالت. آه واللبؤة أشرس مما تتخيل. لم أرتح لتلك الكلمة التي اصطدمت بصورة والدها، ومشهد قتله، والذي تحوّل من فرط تكراره في خيالي، إلى مشاهد متعددة بسيناريوهات مختلفة، وكانت آخر نسخة له، هي محاولة جرحه فقط وليس في العمق، لمحاولة إنقاذه من الموت، ثم كان علىّ بعد ذلك مهمة اختراع حجة مناسبة للمندوب. وعند هذه النقطة. تعود الأحداث من جديد لتدور ويتجدد الإحساس بالذنب والضيق.

كان يومي ينتهي من العمل وأختتمه على القهوة إلى أن يغتالني النعاس، فأعود إلى البيت محاولاً النوم.

***

36

تألف الناس مع الغربان

بصورة أدت إلى استئناس بعضهم لها وتربيتها كالحمام. كل الأخبار المنشورة تتحدث تقريبًا عن تضاؤل أعدادها مقارنةً بالشهور السابقة. كنا نرى أسرابها على طريق الساحل الشمالي، وفي مناطق مفتوحة الرؤية، تظهر محلقة بالآلاف، لذا بدأت هيئة الطرق في بناء أسوار شبكية حديدية على طول الطريق، وظهرت بعض حالات الاستغاثة والتعرض لهجوم منها في ضواحى المدينة، فأصدرت وزارة الداخلية بيانات التحذير والإرشادات، مع توفير الخطوط الهاتفية الساخنة. وعلى الجانب الشعبي، بدأت محالّ الصبانة في بيع زجاجات الرش، أسوةً ببخاخات المبيدات الحشرية، وظهرت بعض الآراء المضادة لجدوى استعمالها ضد أعداد منها، لعدم إثارة هيجانها، والذي قد يؤدى إلى ردّ فعل عكسي على مستخدمها. وبدأت مجلات عالمية مثل التايم في نشر رسومات على الصفحات الأولى، تتضمن صورة الأهرامات ملتحفة بالسواد، ويقف غراب على رأس الهرم الأكبر، له من الملامح المألوفة لنا. وبدأت بعض الجماعات الأصولية المطرودة من البلاد في الحملات الإعلامية المضادة، للعب على وتر ضرب السياحة، التي اغتيلت من زمن وفاحت رائحتها، منذ سقوط الطائرة الروسية. ثم بدأت عودة أفواج المصريين من السعودية، بعد تعديل قوانين ولي العهد. أزمات متتالية ونفحات من رائحة الثورة في فرنسا، وازدياد اعداد أصحاب السترات الصفراء في ميدان قوس النصر، والرئيس الفرنسي الشاب يظهر على الشاشة وأتخيله يلتصق بعمتي؛ تزوج من معلمته وحقق كل أحلام استنمائه عليها، لتصير حكايته وحداثة عمره حكاوي تثير الغثيان في كلّ العالم. خرج وألقى خطبته إلى الشعب الفرنسي، وكلما ظهر في الكادر أمامي، ذهني يبتر رأسه، ليضع محلّها رأس الآخر، وأتخيله يخطب على الجموع قصة خيارة عمتي المقدسة.

هاتفني عم حسن، زميل صاحب الورشة. تقابلنا على القهوة وفور رؤيتي، أخذني في حضنه أو بمعنى أوضح، ارتميت فيه، لا أعرف لماذا فور رأيته حدث ذلك. هو بلا أبناء وأنا بلا أب، فكنت أشعر بالأبوة في صوته. يُعطيني مساحة من الكلام ويصمت دائمًا، وبرغم ذلك لم أحك له عن ضحايا الضوء الأبيض، والسعي المحموم وراء التصور، وتحقيق الرؤية على أرض الواقع. وكل ما تحقق، لم يحقق شيئًا يرضيني. حكى لي عن هوايته القديمة في التصوير باستخدام كاميرا ماركة كوداك، وتجاربه في عمليات التحميض، واحتفاظه ببعض الصور القديمة. قال عم حسن. لما أحب أرجع إلى الماضي.. أفتح دلفة الدولاب وأخرج كيس مليان بالصور.. البومات عيلتي وصور كاميرتي.. أقعد على السرير.. أنا وجماعتي (زوجتي) نتفرج ونحكي.. كأننا بنمسك الصور لأول مرة وبنشوفها بعيون تانية.. ندخل جواها وندور على تفاصيل جديدة.. نحكي نفس القصص ونحكي نفس الحكايات وأحيانًا تخوننا الذاكرة في واقعة حصلت.. فنحكيها من تاني ونحس إن إعادة الحكاية.. هي الحكاية الحقيقية في حد ذاتها.. حتى لو كنا عارفين نهايتها.

يا ترى، أين هرب الغراب، أتمّ الإمساك به لإجراء التشريح، لاكتشاف جمجمة هذا القائد؟ قال عم حسن أنهم يحتفظون بعقول العباقرة في المتاحف للفرجة عليها، ونحن نحتفظ بعقولنا في أدراج المكاتب الصدئة.

وفي ظل اختفاء نهاد المفاجئ، فكّرت في إخبار أصدقائها بخطورة الأمر، فربما خطفها أبي ويحتفظ بها كورقة ضغط عليّ؟ أفكر بعقلية الفيلم الأجنبي الرثائية. ورقة ضغط على من؟ عليّ أنا! لماذا؟ هو لو أراد قتلها، ولو شاء، لفعل، حتى ودون علمي. ربما يريد مني شيئًا آخر مثلاً، لتنفيذ عملية تحتاج إلى كل طاقتي الكاملة، ولن تأتي إلا عن طريق نهاد،

المعجزة التي أفعل من أجلها أيّ شيء، هي الطُعم لي. كلها خيالات ساذجة تتلاعب في رأسي، لن تنقشع إلا بعودتي إلى القتل وشحذ بالي بعيدًا عن الهموم، وعند تلك النقطة، همس لي أحد المعارف إن رائحتي لدى المباحث قد فاحت، ومَن منَ المعارف يعرف ما أفعل؟ هناك من قابلني بعد مغادرتي القهوة وقال لي. هناك من يتحرى عنك، لذا غادرت السكن، ونقلت ما أقدر عليه إلى شقة أخرى، في منطقة جديدة.

***

37

رنّ هاتفي

وفور رؤيتي لاسم نهاد. خفق قلبي بضربات متلاحقة، نظرت إليه للحظات، طربًا ومستمتعًا بذلك الإذلال البطيء؛ القدرة على الإجابة والتجاهل معًا. الإحساس بحاجة الإجابة والقدرة على الرفض. وهفّ النداء عن الاستجابة لتجاهل الرد، وكلما تباطأت. تمادت اللذة. أمسكت الهاتف، وضغطت على الإجابة وأبعدت أذني. هي تتكلم الآن وأنا لا أسمع، أتركها وأتحرك، لعمل كوبٍ من الشاي. أظبط بها دماغي، سأتحرك في زمن، تُعدّ فيه كل دقيقة، بثانية واحدة، وتعنى خمس دقائق على الأقل تلزمني لرشفة من كوب الشاي، تساوى خمس ثوان في زمن نهاد. ألو. أنت فين؟ موجود. أنت غيرت عنوانك؟ اكتبي عندك.. تصدقي أنا مش فاكر العنوان كويس. وبدأت في الوصف لها. أنا جاية. أوكى في انتظارك.

كان يومًا غائمًا بالسحب، وعندما تمشيت إلى آخر الشارع. لم أرَ غرابًا واحدًا! وقفت عند بائع الطعمية والطاسة تغرق في زيت أسود والحرارة تلهب كل مقتربٍ، وأثناء رقصته في رمي أقراص الطعمية إلى الورقة

المخروطية بين يديه. قلت له. هو مفيش غربانِ يعنى؟ غربان إيه لمؤاخذة؟ لا ولا حاجة.. ولاحاجة. الظاهرة تقريباَ اختفت، وما دام اختفت. الناس بتنسى. رددتها أثناء عودتي إلى البيت.

رن جرس الباب. الوقت الطائش يركض كالمجنون. نهاد تقف وتحمل بين يديها علبة وحقيبة جلدية. أساعدها على تخفيف ما تحمل، وتحضنني بهدوء وثبات. أريد رؤية وجهك، وحشتيني، أمنية مبطنة. قالت. هتخلص السهرة في الحضن. كنا لا نتكلم، تتكلم عيوننا. عينها ذابلة حزينة. كانت لحظتي للاعتراف لها والخلاص من الثقل، بل لأنتظر. تيجي منها الأول وتعترف لي إنها عرفت بالأمر. كانت حركتها مكبلة، مثل ممثل مرتبك، لم أشعر بالارتياح. نداء القاتل أستيقظ، تحفزت أعضائي. هناك قوات من الشرطة، لمحت ظلالاً من خارجِ النافذة، تحاصر المكان والكل متأهب في أماكنه، للحظة الانقضاض عليِ. كل هذا تبخر وهي تلمسني بأصابعها وتتكلم. كنت صامتاً وهي تحكي عن فترة الغياب ومعاناة الكآبة الجاثمة.

جلسنا على الكنبة. قالت. دعنا نحتفل بالبيت الجديد. أمسكتْ بالعلبة الملفوفة وفضضت الشريط الأحمر الملون، لتظهر كعكة الشوكولاتة. تعرف عشقي لها. أمسكتْ السكين وشقت بطن الكعكة. هذا السكين ناعم مثل كل سكاكين بيتي. قطعت قطعة، وناولتني، لن أتذوق إلا من بعدك يا حبيبتي. حذر القاتل الممسوس. تتذوق أولاً من قطعتي بعد حلفاني عليها، فقضمت من بعدها حتت متوالية، وعندما تلفت إلى جانبي، بصوص اللون الأسود الغائص بفمي، وجدتها تقف خلفي، وشيئاً معدنياَ يتحرك، فيخبط رأسي مع صوت صرختها.

في لحظة ثانية. توالى المشهد في سرعة وكأني أحاول استرجاع شيء ما قد اختفى مني، صوت جرس الباب. الحضن. الوجه الشجن. العلبة الملفوفة. الشنطة الجلدية، والتي ربما تخفى هدية جنسية ما، تمص شوكة الشوكولاتة بشفتيها، ربما فكرت في كل ذلك، في لحظة لمحي لحركتها من وراء الكنبة، عندما لمحت ثقلاً بين يديها. قبل لحظة عبور السكين إلى الكعكة. عندما تلفت بصوص اللون الأسود الغائص على أطراف فمي. شعرت بحركة هذا الثقل من خلفي وبصرختها المخترقة لأذني.

في لحظة أخرى. تمهلت قليلاً، وكأني أعطى لنفسي وقتًا كافيا للتفكير والتأمل، وربما لمحاولة التركيز بشكل مكثف وبإيقاع بطيء. عما سيحدث، والساعة لا تعود إلى الوراء ولا تسير في مواربة. رن صوت الجرس. نهاد تقف ومعها علبة مغلفة بشريط أحمر اللون، وشنطة جلدية تخص العمل في الجريدة، وربما تخفى هدية ما، قميصًا شفافًا لسهرتنا. لم تسألني عن سبب انتقالي المفاجئ ولا عن حجرتها المقدسة، ولا عن مصير الماكيت بها؟ هناك ثغرات لا منطقية تشبه رؤية أسراب من النمل في فصل الشتاء.

لقد علمت بالأمر، والانتقام بات وشيكًا، وربما يحدث في أي لحظة. الآن تحضني وأحاول أن أقبلها ولكن الحضن ينتهي بحركة ابتعادها. كل شيء مرتب ويسير كما تريد تمامًا. متى يبدأ هجوم قوات الأمن وتطبق على عنقي، لما تأخروا، ماذا ينتظرون؟ يراقبون المشهد. يمنون أنفسهم بمشهد جنسي فائر. يمتعون به خصياتهم، ربما ينتظرون أمر أبي النافذ؟ يا أخي أحاااااا لك ألف مرة.

صوت كعب قدميها، وصوت سوستة الشنطة الجلدية، وصوت حركة يديها، كلها أصوات تنشأ بوضوح الآن. وكل محاولة لتحريك أطراف عيني المكبلة بالواقع لرؤية ما تفعل من خلفي، وبكل قوتي الممكنة، في اتجاه تلك الأصوات، أشبه بالرؤية في زمنين متضادين. هنا كانت المحاولة في اختراق القدر، والبتر منه، حدثًا أتوقع حدوثه سيرًا عن الواقع الممكن، لمحت لمعانًا من المحتمل كونه هذا الشيء المعدني، ربما يكون هدية أخرى. التفت إلى الوراء في محاول للتخمين، والكل يسير نحو ما أريد. أعرف ما أريد. صوت هذا الثقل، وشيئًا له من نعومة الحركة وقوة الصدمة، بصوت صراختها الدفين، بطعم الصوص الأسود في حلقي.

في لحظة ثالثة، وربما لا نهائية. استطعمت الآلام وتذوقت المعاناة ومضغت الحسرة. هذا الشيء المعدني يخبط رأسي، لتيسير مهمة الوصول إلى اللحظة الحاسمة، ولكن التاريخ يرفض والتفاصيل لن تتبدل، ولن يغير أحد شيئًا، حتى لو كان أبي نفسه؟ وبالمرة، احاااااااا له كمان مرة، وأكيد. تم زرع أدوات تجسس حديثة علينا الآن، وربما أجهزة تكشف عما يجول في بالي. فبقول لهم من جوه بالي. أنا هنا، وكما قالت نهاد من قبل. الفكرة لن تموت بموتي، وربما تم اختراع ذلك الشيء المعدني الشبيه باللا شيء، ليتم تجربته علي. أنا فأر تجارب الآن، ولأن كل وسائل القتل أعرفها، لن يجدي معى إلا شيء جديد. ابتسمت من داخلي عند تلك الفكرة، لذا فالموت علينا حق. وبالتالي توالت كل لحظات المشهد كما رُتبت من قبل، بصوت صرختها وهي تضرب، وبطعم صوص الشوكولاتة الجزع، وبصوت الارتطام المكتوم فوق رأسي.

***

38

كان كابوسًا

أغرق جسدي في بحر من العرق. استيقظتُ على صداع لا ينتهي. ماذا يعني ذلك؟ أشعلت سيجارة والفجر أسمع نداه من بعيد، وأصابعِ السجائر تتوالى بلا عدّ. أكانت نبوءة اخترقت الناموس لتحذرني؟ لم أرَ حلمًا بهذا الوضوح من قبل، ولا بتلك التفاصيل التي أتذكرها وأعيد تخيلها من جديد؟

هاتفت عم حسن وتكلمنا، ولم أحك عن الحلم. حاولت أن أشرح له شعوري و ردة فعلي عند الصحو، واستغرابي من كونه حلمًا. قال لي من الممكن أن تكون رؤية. برغم أنه لا يؤمن بها بتاتًا، ويؤكد أنها ما دامت رؤية، فأنا الوحيد القادر على تفسيرها، وحذّرني من علامات قد تخصِ عقلي الباطن، وما دامتُ أشعر بالقلق أثناءها، فهي شر. وواجب عليَ الحذر والاحتفاظ بحكايتها لنفسي. كان حكيمًا وصادقًا، ولو تغيرت الظروف قليلاً، لشرحت له بصدق كل ما حدث. نصحني بالانخراط في أجواء العمل وترك كل خواطري مؤقتًا، لأنه في الأول وفي الآخر، مجرد حلم، لن يخرق واقعنا بأي وسيلة.

حاولت بعدها بأيام الاتصال بنهاد، وسؤال الأصدقاء عنها. لكن لم تأت إجابة شافية منهم. مؤكد أنها عرفت، وكانت الصدمة قاسية، فأدّت إلى حالة الصمت لديها. هي تحبني، فكيف تشي بي؟ لم أتخيل تلك اللحظة، وهي تغادرني بلا وداع. أبدًا لم تخطر على بالي.

وبمرور الأيام، لطمتني كلمة. ماتت. أهرب من الكلمة إلى تأمل الماكيت المقدّس. كما أطلقت عليه، وأستعيد لحظات لمعان عينيها في الرؤية الأولى. لماذا تهلّ التعاسة وتصبّ كلمات الوجع؟

قتلها أبي ثم دفن جثتها، (فاختفت في ظروف غامضة!) ونحن، وقد انتهينا من ثورتين عاتيتين (فشيختين) كما يقال، فالأمر عادي جدًا ويجرى على لسان العامة يوميا، مثله مثل عبارة. البقية فى حياتك.. حياتك الباقية. الموت تحول إلى شخص، نغرم بلقائه ونحزن من غيابه، نعتني به كطفل مدلل وينقح ضميرنا صداعًا، إن قصرنا في إتمام مراسمه ونسينا خطوة من مراحله. حكت نهاد عن أبيها. تخيل يا عادل.. ناس من العيلة.. رفضت الصلاة عليه.. لأنه كان يشرب الكحول؟ هو إيه دخل ده بالموت! الراجل مات خلاص.. هو ماسك الكأس وبيقولكم صلوا عليا!

قتلها، ليحرق قلبي ويدفن معجزتي. الشيء الوحيد الذي آمنت به. خطفها وعذبها ثم اغتصبها؟ ماذا أقول وقد تحوّلت الحجرة إلى سماء من الدخان، خانقة، ثقيلة، ومتشائمة.

كان الليل يسير معى وقدمي تمشى على غير هدى. جلست في ميدان إبراهيم باشا، التمثال العظيم على حصانه. الشتاء غربل المارة. إشارات المرور تعمل. لوحة إلكترونية جديدة مثبتة على فم النفق، تحذرنا من ممنوعات العبور إليه. حذرتنا من القتل، لكني قتلتُ ولم يرني أحد. هناك مجذوب ينام على أريكة، غير مبال بأحد. يا بخته. تمنيت بعضًا منه، لأستريح من الظنون. محالّ تطفئ أضواء البتارين. عيون بناية الجراج الوقح تحدق بي. عيون تخرج منها غربان سوداء. ستهدم يا وقح كما هدمت الأوبرا من قبلك. الغربان لا قائد لها، لأنهم متشابهون. كما ثورتنا، نقية، ونحن طيبون، فتركنا أمرها والغراب الهارب عرفتُ مكانه. اختبأ في صدري. هو بأمان الآن، ولن يصل إليه أحد. أحتفظ به في داخلي، خوفًا من الوشاية عليه، واستجواب الداخلية والرمي به في

الحجز. أخاف من نفسي الضعيفة، أن تشي عليه، لينشغلوا به عن حقيقتي. أضحّى بالغراب في سبيل خلاصي.

لمحت أحدًا أعرفه يعبر الطريق. إنه الآخر. صافحني وحضنني. قال:

_ كيف تجلس في هذا الجو؟

يرتدى جاكيتًا يبدو غالى الثمن. إنه ذلك الجاكيت الإيطالي الذي تركته في المحل.

_ أنا حران من جوه.

جلس إلى جانبي على الأريكة ويديه في جيوب الجاكيت.

_ تبدو مهمومًا.. غيرت عنوانك إمتى؟

_ من كذا شهر.

_ لم تخبرني به؟

همست بكلمات لم أسمعها. مجرد تهتهة خرجت فى لغة غير مفهومة.

_ خسارة إنك تعتزل.. وفي سبيل أيه؟

أنت لم تفهم ولن تستوعب.

كان حوارًا يبدو ساذجًا لا معنى له. هو يعرف إني لا أريد الحديث ويستغل انعدام السبل.

_ أنت قدرت تشوف أبويا؟ (وسألت نفسي على التوازى، قدرت تشوف الغراب؟)

_ ومين يقدر يشوفه.

_ وإزاي تشتغل مع حد.. متعرفش شكله؟

_ وأنا يهمني أيه من شكله.. المندوب نفسه ميعرفش شكله.

الحوار ذات الصيغة المكررة. سألت.

_ تعرف فين نهاد؟

سكت قليلاً.

_ أنا دورت عليها في كل حتة.

_ إلا بيتها.. أنت متعرفش مكانه، بمناسبة نهاد.. الحقيقة أنك لو تلاحظ.. بقيت بقلد طريقة المندوب في الكلام.. مش ملاحظ؟

عبارة (في بيتها) أصابتني بحالة من الراحة والاسترخاء.

_ نهاد عرفت أنك قتلت أبوها.

ظهرت صورة النبي الغلماني ونهاد تحدق فيه بقسوة.

أكمل.

_ وأبوك عايز يعرف.. مدى إيمانك بها.. فحياتك في مقابل حياتها.

لم تتطلب الإجابة التفكير. أنا موافق.

من لحظة نطقي بالكلمة، شيء ما عبر كبدي وشعرت لوهلة بفرقعة مكتومة، واحمرار في رؤيتي وتخدّر يسرى في جانبي المحاذي له. يا ابن الكلب.. ده طلع أسرع منى بمراحل. أسرع قاتل هادئ شوفته. لا وقت للتفكير الآن، و كما قال. أنت الآن الضحية. أسدٌ مخدَّر أم أسدٌ مقتول؟ في لحظة السقوط، حافظت على انتصاب الجزء العلوي من جسدي بكل قوتي. أموت بكرامة، كقصة فيلمٍ أجنبيٍ رخيص. ما الأداة التي استخدمها الآخر، وعبرت بين أعضائي، بماذا قتلني؟ صور تتفرق أمامي وتتشظى.

***

39

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢٢/ ٦

أنا مضطرة أقفل الحساب لأسباب شخصية. بفضّل أحتفظ بها لنفسي. حابة أبلغ الأصدقاء إن غيابي المتقطع كان لأسباب خارجة عن إرادتي. وفي حاجات بتحصل مش قادرة أعبر عنها وأتكلم عنها دلوقتي. يمكن محاولة حضن نفسي والانطواء شوية تخفف عني.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢٨ / ٧

أنا بخير محدش يقلق عليّا. الانقطاع عن الأونلاين. لأسباب ما زلت أحب أحتفظ بيها لنفسي. كل اللي أقدر اقوله. إني بشكر كل الرسايل والمكالمات اللي مش هقدر دلوقتي أرد عليها ولا أشكر أصحابها واحد واحد. مش حابة إن القلق يزيد ويعدى مساحة حريتي وانفرادي بنفسي. يعنى مش لدرجة أن أمي تكلمني وهي مخضوضة عليا. عشان في حد حب يخدمني. فيقوم مكلم أمي ويخضها بزيادة. عالعموم أنا كويسة وهضطر أقفل الأونلاين. ومتشكرة على اهتمامكم.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٤ / ٨

مش قادرة أفهم عقلية المجتمع. اللي مبيعرفش. يعامل البنت المستقلة. اللي بتعيش لوحدها وبتشتغل لنفسها عشان توفر مصدر رزق وقوت يومي ليها. وينظر ليها نظرة. الهاربة من أهلها. لا ويقعد

يحفر وراها عشان يعرف. ليه عايشة كده؟ وأهلها عارفين مكانها؟ وتعيش ليه كده؟ هي ملهاش أهل يصرفوا عليها؟ دي عاملة اكيد عاملة؟ ده غير التلصصات التي لا تنتهي من الجيران. اللي مبسلمش من نظراتهم أثناء النزول والطلوع من العمارة. جارتي الأرملة في الشقة اللي تحتي. اللي مصدقت إني فتحت لها باب الشقة. فتجرى على جوه من باب استكشاف أرض جديدة. وتشم ريحة السجائر وتقعد تشرب معايا وتفتكر أيام شبابها. وأبلغها وهي عالباب ماشية إني ارتحت ليها. وأنا من جوايا. بلعن فضولها اللي بينط من عيونها وبيحاصرني من نظرتها.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٧ / ٨

تجربة الاستقلالية غريبة عن مجتمعنا الشرقي. الذكوري. اللي بإيده قرار الموافقة أو رفض التجربة. ولأن الغالبية من الشنبات اللي بلا عقل. فطبعًا الظن دايمًا إن الاستقلالية دى ملهاش إلا معنى واحد. وهي الغلطة. الخطيئة. أكيد عايزة تستقل بنفسها عشان تصيع على مزاجها. وطبعًا لو مفيش فرد من أسرتك مؤيد لفكرتك. مستحيل يتم القرار ده برغبة راضية. أبويا نفسه. طول عمره كان مديني الحق ده. ووقف جنبي عشان أحاول تنفيذ فكرتي. اللي كان فاكرها بالمناسبة. مجرد نزوة فكرية وهتعدى. رغبة زي الأكلة. اللي عايزة أجربها وخلاص. وقف ضد غضب أمي على غرار أنه ينهرها ويغمز لها من ورا ضهري. على معنى. سيبيها ومش هتقدر تنفذ اللي بتقوله ده. أمي ليها حق طبعًا في الخوف عليا ومش متقبلة إن بنتها تعمل حاجة مختلفة وتعيش لوحدها وتعتمد على نفسها. اقترضت من أبويا مبلغ قدرت أجهز بيه شقة تحت حساب إني لما أشتغل. هسدد كل الفلوس. وطبعًا أنا فاكرة إن مسألة

البحث عن عمل بعد التخرج مسألة سهلة. بس الصدفة. وجدت جريدة إلكترونية شابة بعقلية متفتحة. اشتغلت فيها تحت التمرين لمدة بلا أجر وكنت راضية ومتقبلة.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢٨ / ٨

جربت نفسي في الكتابة والقصة القصيرة على وجه الخصوص وكنت من وقت لتاني بكتب وبعبر بعفوية البوستس دي عن ما يجول في بالي بدون رقابة من حد. لحد ما اقترح عليا صديق إني أجمع قصصي القصيرة بحجم عمري في كتاب. واطبعها ورقيًا. بيني وبينكم أنا عارفة إن الوسط الثقافي مش مستحمل حد تاني يدخل ويظهر. لكن قعدت مع أصدقاء معرفة فيسبوكية ولاقيت إن الأمر متاح ومش صعب بعد تزايد عدد دور النشر الخاصة. وبعد ما اتفقت مع صديق شاب صاحب دار نشر. تهربت وتحججت منه ولاقيت نفسي بهجر الدنيا ومش عايزة حد وبالبلدي كده. يقرأ تجربتي ويطلع على أسراري القصصية. حسيت إني بخون النص. بنشره على العامة.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٤ / ٩

تقريبًا التعامل بعفوية وطيبة ممكن تؤدى بك إلى تهلكة. في خروجة مع الأصدقاء. لزق فيا حد طول الخروجة. معرفتي به سطحية. لما أقعد. يقعد جنبي ولما أمشي. يمشي جنبي. والله أنا بقبل الكلام الحلو واللطيف عن طيب خاطر مش عشان حاجة في نفس يعقوب. المهم قعدنا وجزء من الشلة انفصل ولقيته بيمد إيده وعايز يفتح الموبيل بتاعي. طبعًا

قلة ذوق. هكتبلك نمرة تليفوني. هو أنا طلبتها. وبيحاول يهزر ويخبط بإيده فيا. ده أنا بتقبل ده مع أخويا بالعافية. ما بالك بحد غريب ومش صديق. وبدا يكرر أسطوانة إنه وحيد ومنكسر وخارج من قصة حب فاشلة وحاسس إنه أول ما شافنى إنه أتغير حاله وبلا بلا بلا. لقيت أن الخروجة وبالشكل الفج ده. خربت خلاص. اتحججت وروحت على البيت مستغربة من حالة النزوات الوسخة دي. اللي بيحاول فيها الرجل فرض حالة من التعالي علينا. وطبعًا البلوك كان أسهل طريقة للتخلص من أشباه الرجال دول.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٥ / ١٠

رواية كائن لا تحتمل خفته. أسكرتني في حبها. إزاي قدر كونديرا وبكل أريحية. يلمس الوتر الحساس في قلبي بحكايته. ويعبر وبكل فلسفة عن علاقة الحب ومدى توتر الأوتار فيها من الشد للجذب للثقل. إللي بيتحول مع استمرار العلاقة إلى حجر ثقيل على القلب. ومع عامل الزمن بتقدر إنك تكبله وتشعره بالحبس وعلاقة الأجساد ببعضها. اللي تشبه. بتعبير صديقتي المقربة. تشبه عملية الشحن والتفريغ. الهوسة العقلية إللي بتصيب الرجل بعد اعتياده على الجسد وتمرده الدائم على الجسد الواحد. الرواية تحتاج إلى قراءات كتيرة وفي مقاطع مدهشة وكل ما أرجع ليها واقرأها تزيدني محبة وتأثر.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢٧ / ١٠

بقالي كام يوم. حاسة برعشة بمعنى الكلمة ودخلت تقريباً في حالة من اليأس القهري وكل ما أفتكر وإيدي تحاول تكتب بترتجف. كنت راجعة البيت والمسافة مش بعيدة. ده مسافة مشي محطة باص. كنت واقفة عند كشك بشترى حاجات منه. وفيه شباب. ومن كتر ما بشترى من عنده حاجات من يوم ليوم. اتعرفت على الشاب العامل. اللي بيوقف يشتغل فيه. وأحيانًا أكلمه لو مكسلة أنزل من البيت. أكلمه فيشحن لي على الطاير رصيد الموبيل. فاليوم ده مقدرش أقول الجو كان متأخر في الليل. لأن الناس والعربيات مالية الشوارع. وكنت في المعتاد بروح في المعاد ده. كان في تلات شباب واقفين في الناحية اللي ماشية فيها. جالي إحساس بالخطر معرفش ليه. عديت على الناصية التانية. عشان أبعد عنهم. لقيتهم ماشيين ورايا وبيرموا عليا كلام قبيح وبيقربوا المسافة اللي اتحركت فيها من الكشك لحد النقطة اللي حوطوني فيها ماكنتش بعيدة. صرخت وإيديهم بتشد البادي. وبحاول أتفادى صوابعهم على صدري وبين وراكي. صرخت أكتر. والناس واقفة في الشارع. بتتفرج عليا وكأنهم مستمتعين بالمشهد وباللي بيحصل فيا. رقدت على حيلي بعد ما الشباب حسّوا بالخطر وركبوا المكنة وجريوا بيها. أكتر حاجة مستغرباها. الشباب إللي كانوا واقفين عند الكشك. بلاش. الشاب اللي بيشتغل فيه، كنت متصورة إنه هيكون أول واحد يجرى ويدافع عني ولو بالصوت. كان واقف زي الغريب و زي الناس وزي الشباب اللي واقفين عنده. بدأ الناس تقرب وتقول. إنتي غلطانة. لابسة محذق وملذق. إيه اللي ممشيكي فالشارع. إنتي لو محجبة محدش كان قرب ليكي. طبعًا جسمي كله بيرتعش وحاسة أن عضمى أصابه العطب ولما روحت البيت اكتشفت كدامات حمرا متفرقة على جسمي. وقعدت أعيط طول الليل. مش متخيلة إن اللي حصل ده

حقيقي. وحاسة فعلاً إني في مدينة غير آمنة وإن القاهرة رغم إنها مستكينة ومغلوبة على أمرها. بس لما تخربش بتكون شرسة. أنا بعد كام يوم وبعد نصيحة صديقة ليا. رحت قسم الشرطة وعملت بلاغ تحرش. وطبعًا ابتسامات الظباط هناك الساخرة من حكايتي ناضحة في عيونهم. كلاب بتدافع عن ذئاب. المأمور نصحني إني كان لازم في ساعتها أعمل البلاغ عشان يقدروا يمسكوهم. كان كلامه صادق وحقيقي طمني إن القانون دلوقتي بيحبس المتحرش وبناخد حقنا فعليا. شكرته وفحلقي غصة لسه عالقة. كل ما يتكرر مشهد الاعتداء فى خيالي. أنا مش قادرة أنصح أى بنت دلوقتي بأي حاجة غير بالحذر وعدم السكوت والتبليغ دي أبسط حقوقنا. أتمنى إن كلام المأمور يكون صادق وأتمنى إني أقدر أنسى حالة اللامبالاة اللي شوفتها في عيون الناس.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢٨ / ١٠

أنا مبسوطة من كم التفاعل الحقيقي على بوستي السابق عن التحرش ومن الحملات اللي بدأت تظهر هنا. حملة لا للتحرش. أمسك متحرش. افضح وصور متحرش. اللي بدأت وكانت موجودة من قبل وأنا معرفش. قدرت تكون وتجمع جبهات وتقدم المتحرشين فعليا إلى القضاء ومبسوطة من الصديقة اللي هتلاقوا قصتها في أول كومنت من تحت. لأنها نجحت تمسك المتحرش بالتعاون مع الأهالي وقدموه إلى الشرطة للتعامل معه. أما الفيديو اللي لاقيته حصل من أسبوع تقريبا ونزله عمرو أديب عنده في برنامجه. عن السيدة المحترمة اللي ركبت تاكسي ومسحت بكرامة السواق الأرض. لما بدأ يقل أدبه عليها ويلمسها ويقولها مقصدتش وسامحيني وأنا آسف. كلام وقلة أدب وسفالة.

وسمعت إن الأجهزة الأمنية بعد إذاعة وانتشار الفيديو. قبضت على السائق. وأنا مستمرة في التعبير عن الحملة ومستعدة أساعد أي بنت عايزة تاخد حقها الفعلي. اوعوا تسكتوا. لا للتحرش.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢٧ / ١١

لو السينما علاج الروح. فلا تبخلوا عن أنفسكم بها. دخلت فيلم La La Land، ومن وقت ما خرجت منه وأنا طايرة فعليًا. الخفة اللي وصفها كونديرا في روايته حسيت بيها. خفة الروح وخفة القصة. لم أتوقع الاستغراق فيه بهذا الشكل. في من الأفلام لها سقف من التوقع. لكن الفيلم ده جماله مفاجئ ومبهج وغير متوقع. تحس إنك دخلت جواه ومع أبطاله فعلاً. بتنام في سريرهم وبتمسك إيديهم وبتحرك خيالك معاهم. هذا الفيلم تعدى حدود وصف ما أصابني به. هو الواقع ليه دايمًا بيفرض قواعده على الحب. ليه الحب ضعيف هش. له خفة الريشة. بالموسيقى تصنع البهجة وتقدر تعبر وتداوي الآلام جواك. تنسيك ولو للحظات واقعك البائس الخالي من النجاحات. تبهجك وتفرحك. تحزنك وتبكيك. أحاسيس مختلطة. أنا لا أهوى موسيقى الجاز ولكن هذا الفيلم خير تعبير عنها وعن تمردها الكابح. الجاز العصري المطعم بالأجهزة التكنولوجية. الآلية. Emma Stone كانت المرادف الموسيقي في التعبير عن فن التقمص واللى فشلت فى كل اختبارات الأداء. الباحثة عن محاولة الظهور ولو لمشهد واحد أمام الكاميرا. قصة الحب والرقص والحلم. كانوا على قمة جبل الفنون. تشابهت الطموحات. وتشابكت وتعقدت بالواقع. الصخرة اللي بيتحطم

فوقها أعتى الأبطال. والحب محتاج التضحية. كل قصة حب تفرض مبدأها في التضحية.

الطموح والحب؟ ليه ميتحققوش مع بعض؟

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ١٢ / ١٢

النهاردة اتعرفت على صديق معندوش حساب على الفيسبوك وسبب المعرفة رواية لكونديرا.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ١٨ / ١٢

هو إحنا فعلاً بدون الفيسبوك ممكن نعيش حياتنا؟ إحنا جربنا ده في جمعة الغضب إحساس إنك تنعزل عن أصدقائك عن العالم ليوم كامل. إحساس الفقد الفجائي. اكتشفت إننا نقدر نعيش من غيره. وببساطة إذا اعتبرناه مجرد وسيلة للتواصل حديثة عن التليفون بس بطريقة مختلفة وأكتر سرعة. ولأنه تحول إلى مخزن معلوماتي وبيتحول إلى مادة غير مرئية تبلع وتستوعب تجربة كل واحد بيحاول الخوض في عالمه. ففيه المتاح والمغري. فتخيل إنه معاك مفتاح لحاجات كتيرة. زي المعلومة. والتعبير عنها والبحث عنها وإيجاد مؤيدين وموردين لها. وتفاعل وتربيط صداقات ومن ثم الدفاع عنك ضد أي هجوم. والبحث عن روابط لتدعيم المجموعة المؤمنة بك. إلى الدخول في نفق التدعيم المالي المتاح للدعاية والظهور بشكل مكثف ودوري في إعلانات سبنسور داعم. كل هذا العالم الكامل نطلق عليه. افتراضي؟!

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ١ / ١

ومع ازدياد المتربصين والمتلصصين من أصحاب شعار. أراقبك ولغرض ما أكلمك على الخاص وأظبطك. تم مسح وتبليك عدد لا بأس به منهم. حياتي هنا وملك لقلوب الأصدقاء الدافئة واللي بتحس منهم بود واتفاق شعوري دايماً. والشعور المتبادل من الاهتمام بيتحس. أما إنك تتابعني لمجرد التسلية فأنا مش من مدرسة (أزود عدد متابعين وأضخم عدد الأصدقاء) الصفحة دي ملكي وملك للي يحب يتكلم ويعبر براحته بس باحترام ومراعاة لشعور الآخرين.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٤ / ٢

مفيش أحلى من الأمسيات الفنية اللي تقابل فيها أصدقائك في مكان تحس فيه براحة. كأنك في بيتك. اقترحنا إننا نقضي سهرة على فيلم Requiem for a Dream ونجتمع على حب هذا المخرج العبقري أرونوفسكي ونتكلم ونتخانق وننقد حلقات النقاش أد أيه ممتعة بدرجة غير طبيعية وقد إيه مبهجة. الحقيقة أنا حابة أشكر صديقى عادل (اللي معندوش لسه أكونت عالفيسبوك) على استيعابه للفكرة ولدوشتنا عنده برغم إنه مبيحبش هذا النوع من الأفلام ولكنه شاركنا بالمكان في بيته الجميل.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ١٦ / ٢

دخلت إلى جروب للكتب عليه نسبة مشاركة كبيرة واضحة من مدى تفاعل الأشخاص عليه. قلت لنفسي ما تشاركي معاهم وتتسلي. فعملت بوست بيقول. إيه أكتر رواية أثرت فيك؟ البوست عمل ٤٢٢ تفاعل و٥٠٠ تعليق. وكانت الصدمة مش من عدد المشاركين بل من العناوين المقترحة. هناك يا جماعة عالم مواز لنا. لا هو عالم البيست سيلر ولا هو عالم روايات الرعب. ده عالم الرويات الوعظية. عناوين دينية بحتة. روايات دينية لا عن تاريخ الأديان ولا عن تاريخ الفكر الديني. لا. روايات وعظية بفجاجة ولما حاولت أعمل سيرش عن مؤلفين تلك الأعمال وجدتهم ما بين المنتقبات وذوي اللحى. ده حاجة جديدة عليا. أول مرة أشوفها. وأعداد الترشيحات من النوعية دي مهولة بجد. والغريب إن لما يجي سؤال مثلاً لشخص عايز يبدأ يجرب طريق القراءة. يبدأ سيل الإجابات بهذه الروايات؟ كبداية! طبعًا أنا معلقتش وتفاعلت على افتراض جهلي المسبق. ولأول مرة أنصدم من وصول النوعية دي إلى شريحة واسعة من القراء. كانت في بعض أسماء منها. لكتب البيست سيلر والبوب آرت ولكن مكنتش متوقعة إن الكتب الوعظية اللي على شكل رواية. ممكن تتفوق بالشكل ده؟ ده كان استطلاع رأي شريحي ممكن نسميه جس نبض بسيط. لمعرفة إلى أين نحن نسير بالثقافة؟ ومين اللي يقدر يدل هولاء عن الأدب الحقيقي ويقدر إنه يعلمهم يعنى إيه فن وليه لو تحول إلى وعظي يتبخر دوره ولمعانه. وأيه الفرق بين الأنواع الأدبية وإزاي أقدر أميز بين الغث والثمين؟ وهي هي الشريحة اللي تخرج عليك بتأييد مصطلح السينما النظيفة ومن ثم الأدب الوعظي وقياس الفن بميزان التدين وكلما كان العمل الفني يخضع إلى الإيمانية ازداد حبًا وشهرة وبالطبع قيمة. كل ده طبعًا. بينتج عنه خلق كائن مشوه من الأفكار وطريقة التفكير والتي تصب في الآخر إلى

صياغات فكرية وتولى تلك العقليات لمناصب عليا في الدولة. إلى أين تؤدى نتائجها في آخر الأمر؟

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢٠ / ٤

مش متعودة أكتب بوستات تعزية. مش عشان حاجة. الفقد شعور صعب وكل كلمات المواساة لن تكفي في موت بابا. اللحظات صعبة والذكريات حلوة وكل محاولة للتذكر تفضي إلى البكاء. وبالعافية قدرت أحضر العزاء في البيت ومقدرتش لا أروح الدفنة ولا عزاء الجامع. ولاقيت إن الوحدة كانت أفضل ونيس لي برغم تحذير المقربين بضرورة الخروج من العزلة اللي عشت فيها أيام متواصلة. الأصعب من كل ده. كان استقبال الخبر واستقبال بعد كده كل الكلام اللي هو مجرد أفعال بتتعمل بدون تفكير. فكل الكلام جاهز ومترتب والردود وكل شيء. يعنى تلاقي إن الحزن برغم إنه الإحساس الكارثي اللي بيصيبك بشلل كلي. تجد أن الناس بتتعامل مع الموت بكل أريحية. الناس أصبحت مدربة. دي مش الكلمة المقصودة. أقصد متقبلة ومستعدة لوجود الموت وسطتنا ومتقبلة زيارته الثقيلة. ولما أصدم حد وأقوله. هو مات مقتول. ألاقي الردود من عينة: يا بنتي هو عمره وانتهى.. هو في حد بيختار طريقة موته.. بأي طريقة دي مش بتاعتنا.. كلنا هنموت ونتقابل في الآخرة. بتكون صدمتي أكبر من استيعاب خبر موته الفعلي. هو مات. أنا عارفة. بس من حقي أحاول أكون مطمنة إنه مات حتى طبيعي زي كل الناس. كنت حاسة زي ما يكون ضميري بيحاول يبحث عن وسيلة لتعذيب نفسي بكل شكل. وكل ما افتكر إنه أكيد اتألم قبل موته. وإن الإسعاف وصل متأخر بعد ما نزف كتير. تنغزني نفسي. وأجد

الكلمات لا تكفي ولا تشفع. أنا لا متماسكة ولا نيلة. منعوني من الذهاب إلى الشقة وقت ما اكتشفه موته ومن متابعة الأخبار والمستجدات وكان عندهم حق. وكنت وقت العزاء مش قادرة حتى أنطق الرد على كلمة كل معزي. البقاء لله.. والبقية في حياتك. لقيت بعض الأقارب على جانب العزاء. بيضحكوا! لا مشكلة عندهم في موت أحد من العائلة واستقبال كل المراسم ومن بعدها الضحك كنوع من التخفيف. لا مشكلة في تقبل الموت. لا مشكلة في دفنه. لا مشكلة في أي شيء. متى حضنته الحضن الأخير؟ ومتى قبلته؟ خذلتني الإجابة وتلاشت تلك اللحظات.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢ / ٥

من حق أي إنسان أن يختار علاقته العاطفية الشخصية وبالطريقة اللي تناسبه وبحسب الإمكانية المتاحة. بس مجتمعنا الشرقي يفرض محظوراته العرفية على الجميع. ثم يدافع عن رأيه دينيًا كحائط صد منيع. فماذا تقول بعد كلام الله في محكم آياته؟

قضية زواج البنت المسلمة من الشاب المسيحي واندلاع الحروب بين العائلات. أدت إلى تحرك الحكومة في محاولة لتحويل القضية وتحويرها من قضية الدفاع عن الحرية الشخصية إلى قضية الدفاع عن الدين نفسه؟! فلو تزوجت البنت وبإرادتها الكاملة مع احتفاظها بدينها (اللي هي حرة في اختياره بالمناسبة) ترفض العائلة وتعارضها السلطة الدينية ومن ثم يحاكمها المجتمع على الارتداد (بوجهة نظرهم الخاطئة) وبالتالي يباحِ دمها. وكان من الأرجح هروب البنت إلى خارج البلد وكان قرار صائبًا وصحيحًا. ومن هنا تأتي قضية كبرى وتحدث في

بلدنا وتتكرر باستمرار. وماذا مع ازدياد حالات الزواج من ديانات مختلفة؟ وهل بتحول هذا الشاب المسيحي إلى الإسلام أو بتوجه الفتاة المسلمة إلى المسيحية. هل بكده اتحلت المساءلة؟ طبعًا. لا. لأن حالات التحولات دي. بتكون مجرد صورة قانونية وواجهة مجتمعية. تليق به. هل بتبدل الديانة ولو على سبيل المصلحة الشخصية. وكلنا نعرف حالات تحول المسيحيين إلى الإسلام لعدم القدرة على الطلاق. كحل قانوني. وهناك الحل والإجابة من تونس في تفعيلها لقانون السماح للمسلمة بالزواج على غير ديانتها؟ برغم إنها قضيتنا الأصلية في مصر. وفي وجود التفاعل الحيوي بين أفراد الشعب المصري. هناك من الآراء سمعتها ومن دكتور نفسي قال إنها ظاهرة صحية. رغم الخوف منها. لأنها تعكس مدى الحب الذي لا ينظر إلى نوع الديانة. وهنا يظهر السؤال الأصعب. مع افتراض استمرار الظاهرة. لمن تنسب ديانة الأطفال؟ أتنسب لجهة الأم أم لجهة الأب؟ وماذا لو اختلف الطرفان وظهر شبح التعصب والفرض على الأطفال؟ وربما في المستقبل تسن الدولة قانونًا يمنع نسب الطفل على دين والديه الإ بعد بلوغه السن القانونية. وتأثير تعدد الأديان على حياة الطفل وفي مدى استيعابه.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ١٧ / ٦

في مقولة بتقول إننا خلقنا كلنا من تركيبة واحدة. تفصيلة عضوية شبه موحدة. جوانا كل المشاعر والعواطف والشكل التشريحي الواحد. بنكتشف نفسنا وبنطور قدرتنا وبنعلم نفسنا على اعتياد الاحتمالات والتعامل معها. ومن هنا يبدأ كل حد فينا في التميز واختيار الطريق الأصلح إلى قدرته وتعوده. إزاى يكون جوايا مفردات الفن وأنا معرفش

أعبر عنها؟ وهل التجربة تكفي. لتصنع فنان. فيعبر عنها لا إراديًا. مع عدم معرفته الفعلية بأن ما يفعله هو فن! وأنه بمجرد معرفة بكونه فعل فني حقيقي. يستحق أن يشاركه مع ناس تحب هذا الفن. صديقي عادل صنع مجسمًا لمدينة تشبه القاهرة. هي ليست هي تحديدًا ولكن بمجرد التدقيق فيها. تشعر بروح القاهرة تفوح منه. المجسم متلاحم مع عنصر غريب متحرك. وهي مادة الأبيض. كما بيحب يسميها. عن سر الماكيت. واللي صنعه بروح إنه عايز يصنعه لنفسه وبس. الماكيت مصنوع بمادة الخشب ومادة الأبيض خليط من عناصر كتيرة. وهو العنصر المتحرك في المدينة. سامحوني من الوصف لأني هحاول في المرة القادمة تصوير الماكيت بفيديو حي. عشان تشاركوني محبة هذا الفن. التقطت بعض الصور ولكن الماكيت مع الحركة أكثر رونقًا وجمالاً.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:

تاريخ: ٢٨ / ٦

أحيانًا تجد من واجبك إنك تشارك ترينند مهم وخاصة لو كان في بلدك. هجوم الغربان كظاهرة غريبة وغير طبيعية ولأننا شعب فكاهي. فتقدر تستمتع بالنكات والأطروحات الفذة من المصريين وتأقلمهم مع أي ظاهرة تحدث. في أوربا وأمريكا منظمات الدفاع عن الطيور كتبت مذكرات وقدمتها لمعاقبة مصر في الأمم المتحدة على طريقة التعامل البشعة مع الطيور. فيديوهات التعامل الأمني والطبي. بالغة الفكاهة. والعالم الآن مراقبنا عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي. الحكومة بدورها قدمت تقارير وافية عن طرق مواجهة الأزمة وبيانات واجتماعات وحضور لخبراء أجانب. وهناك غرامات دولية من الممكن أن تتكبدها الحكومة. للمعاملة السيئة لأي كائن حي. حتى ولو خطير

بالشكل الذي يثير الغثيان ده. لن يؤدى إلى حل المشكلة. الأمر أشبه أنك تعذب روح لأنك مش محتاجها ولتقليل من أعدادها. مهازل فيديوهات المصريين والاستمتاع بطرق التعذيب حتى الموت. ظاهرة تقلقني وأظن تقلل من أي حد عايش في البلد دي.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:
تاريخ: ١ / ٧
أغلق الحساب إلى أجل غير مسمى.

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود:
تاريخ: ٣ / ١١
مكنتش أتصور إن ده ممكن يحصل؟

بوست على الفيسبوك بقلم نهاد محمود: تاريخ: ١٧ / ١٢
لقد فقدت أبويا السنة اللي فاتت وحبيبي الآن...

بوست تحتفظ به على اللاب توب، وفضلت عدم نشره على حسابها الشخصي:
تاريخ: ٣ / ١
أنا آسفة على تحول الأكونت إلى مأساوية متواصلة. ولما قدرت أهدا. أوصى الأصدقاء عليا بنصيحة الكتابة والفضفضة. سامحوني. هي علاجي الوحيد. مش محتاجة تعليقات الترحم ولا ذكر المحاسن ولا أي شيء غير إني أعبر وسامحوني على عدم الرد على أي كومنتات. سامحوني بجبر خاطر. ومش هزعل حتى لو محدش قرأ البوست واحتمال كبير أودع

هذا العالم وأغلق حسابي بلا رجعة. فالحياة بقت صعبة وفوق الوصف والخيال فاق أي واقع. والقاهرة تحولت إلى مدينة موحشة. لا عقاب ولا حساب ولا محاولات حتى من أجل المحاولة. كلها شكليات وأجساد بيتكتب في سجلها المدني. مات مقتول. معاينات وتحقيقات وإجراءات كلها شكليات على ورق.

لما قفلت حسابي من شهور. كنت قفلت تليفوني كمان وكل ما له صلة بالعالم من أجل ذكرى أبويا السنوية والإحساس اللي رجع لي بعد ما صدقت إني قدرت أخرج منه أيام موته. بدأ يعود من تانى وأشد منه. بوادر العجز المخلوطة بالكآبة. عادت وبشكل جديد وبأفكار غريبة. فالفترة دي كنت بقرأ القرآن وأحيانًا أنام على صوته في ظاهرة استغربت منها ومن نفسي. وفي لحظة زهق قرأت قصيدة لنزار قباني وعيشت جواها في ظاهرة أخرى أشد عجبًا. كنت من زمن. اشتريت ديوانه من معرض الكتاب. وركنته في المكتبة مثل الزينة. معرفش ليه. لما قلبت فيه وجدته مسلي آوى وخرجني من حالة الكآبة. الوحدة علمتني الجلد. كنت في البداية بخاف من أي صوت أسمعه واللي غالبًا من الشارع مع هدوء المارة بيعمل صدى ترددده حيطان البيوت. كنت بتخيل إن البيوت بتتكلم مع بعض في ظل نوم صخب الناس من قلة أدبهم. وفمرة اقتحم خلوتي جرذ عملاق. كان حجمه زي القطة الصغيرة. رقعت بالصوت ولبست هدومي وأخدتها لف على كل صحابي وفالشوارع ولما رجعت لقيته جوه في أوضة مبدخلهاش. فقفلت عليه بالمفتاح. حسيت إني انتصرت عليه برغم إني في الليل كنت بسمع صوت خربشته على الخشب. اكتشفت تانى يوم الصبح. إنه قدر يعمل فتحة في الباب وهرب منها. واترعبت من فكرة إنه قدر يعمل فتحة بالقطر ده وفالخشب كده! اقترحوا عليا أشتري وسائل عشان تموته. وتتخيلوا إني

جربت كل حاجة اتخلقت عشان تموته ولم تصلح معه. وكأنه مدرب على الهروب. حسيت في لحظات إنه ونس ليا. زي ضيف تقيل الدم. لحد ما في يوم كانت المواجهة. وحسيته في حجرتي. فقفلت الباب علينا وقررت إني أصطاده. كان بيجرى زي المجنون ولأول مرة أشعر أن وزنه الكبير كان عائق لحركته. كانت الحجرة مش مزدحمة أوى وفضلت أجرى وراه وأنا بصرخ في مشهد سريالي. لحد ما تبينت إني لازم أمسك حاجة في إيدى. مسكت لوح خشب كان فايض عندي. وعرفت إني لما بتحرك يمين لازم يجرى عكس الاتجاه ناحية الشمال. كل ده مصاحب لصراخ هيستيري كلما لمحته. لحد ما اتزنق وراء الدولاب في الركن. حسيت إنه تعب وحركته بدأت تبطأ. بدأت أحشر اللوح وأضرب. كنت فاكرة إني أصبته وأنا بخبط في الدولاب مش فيه. عملت صوت كأني بضرب ولفيت له من الجهة التانية وكان جسمه ظاهر أملس مجرب بشكل مقزز. ضربته فتحرك فصرخت بصوت عالي. وهمدت عليه وعلى رأسه زي المجنونة. ولما قربت منه. لقيت نزيف من الدم بيخرج من أنفه. قعدت شوية كده ثم فتحت حنفية البكاء بحرقة شديدة. مش عارفة ليه عملت كده؟ وليه قتلته؟ وكنت ناوية أسيب مهمة التخلص منه لبواب العمارة بس كنت عايزة أخلص من وجوده في بيتي بأي طريقة والدنيا ليل مش هصبر لحد الصبح. فأحضرت الجاروف والمقشة وحملته في كيس أسود وربطته ووضعته في كيس أكبر بيتركن بره الشقة.

ليه بحكى كل ده؟ لأني حسيت بقوة وبثقة غير متناهية. وعرفت إن الاكتئاب بيتواجه وجهًا لوجه. هيسيطر وممكن يتمكن مني. الفترة دي كنت قافلة على نفسي واتأكدت إن بموت الفأر قدرت أقتل ولو مجازًا الخوف. قدرت أتعامل معاه وأسيطر عليه. ونمت في الليلة دي زي الجعانة. جعانة نوم. كان نومي في الفترة دي مقطع وكنت دايمًا بحس

بصداع. الليلة دي نمت بعمق وبدون أحلام وصحيت سعيدة بدرجة غير طبيعية. وقررت إني أكلم كل الناس وأرجع من تانى لحالة الكفاح الشخصي. وكان تليفون عادل مغلق. كعادته. وحبيت أفاجئه وأزوره في البيت. فما ردش عليا وأنوار شقته كانت مضلمة. لحد ما جالي الخبر المشئوم بوفاته ولأول مرة أحس بالمسئولية تجاهه. عملت كما يفعل المصريون في مثل هذه الحالات وتعجبت من نفسي. إني تأقلمت زيهم تمام. عرفت عنوان بيت أهله. بيت عمته. ورحت معاها المشرحة ودخلتها لأول مرة في حياتي. مكنتش المرة دي خايفة زي يوم بابا. كنت عايزة أشوفه. أودعه. أطمن عليه. سندت عمته لما عرفت أنها وحدانية تقريباً. وعرفت أن أبوه بعت وتكفل بكل مصاريفه وأرسل لنا عنوان مدفن العيلة وكان مكان فخم جدًا وكله حدائق مقارنة بأماكن تانية كنت بشوفها وبتتحكى لي. حاولت أقابل أبوه وأعزي فابنه. ولكن معرفتش أميزه كويس. ولما سألت عليه. قالوا لي. جه ومشي عالطول.

لما روحت البيت بكيت لحد ما تعبت فنمت. كان إحساس يفوق التصور. مفيش حد قريب مني إلا وقد اختفى. ليه أنا بحكى كل ده؟ مش عارفة؟

كنت بحكى مع عمته على الهاتف. فاتفقنا إني أتولى نقل متعلقات عادل من الشقة ورحت على شقته وفتحنا الشقة وحضنا بعض في موجة من البكاء العاتي. صعبت عليا لأنه ابنها. حكيت لي عن طفولته وشقاوته وتضحيتها عشان لا تتركه وتتزوج وهو طفل. وحكيت ليها عن مشاريعنا الوهمية وإننا كنا مخطوبين ومعرفش ليه قلت لها كده؟ برغم إننا متكلمناش على موضوع الزواج ومكنتش بفكر فيه فالوقت الحالي. ومسألة العذرية والشرف كلها مسميات بالية. مكنتش تهمني. مجتمعنا

قدر يفرضها علينا لتكبيل تفكيرنا وحركتنا. فأنا مقطنعة ومؤمنة بكل ما أفعل. وعادل في مرة حاول أنه يلمح لي بالموضوع ولكن مكنتش مستعدة إني أرتبط في بداية حياتي إلا بعد تحقيق ولو انتصار شخصي يرضيني.

مش هخبي عليكم. كنت بفكر في الماكيت. وجدته وقد صار يتيمًا بدون صاحب. حسيت أنه كان جزء حي من عادل. جمعنا كل ما تريده العمة واتفقت على أحتفاظي بالماكيت وكان هناك مندوبًا من طرف أبيه. سهل لنا كل ما نريد ونطلب. نقلت المجسم إلى شقتي ووضعته في حجرة. ونظرت إليه في حسرة. وترامت الذكريات كالصور المفتتة. أجزاء من كلمات وحركات ومشاعر. كنا صنعنا عالم مختلف واختفى.

ليه بحكى كل ده؟ لإني وصلت بعدها بأيام إلى مرحلة اللاتصديق. مرحلة القبول اللي بتغذى به جسمك فالبداية وبكميات كبيرة و كل اللي حواليك بيساعدوك على كده. وبعد ما تمر الأيام ويبدأ المخزون من النفاذ مع انفضاض الناس عنك. بتتحول إلى حالة السكينة والهدوء اللا إرادي اللي هو أنا كويس من جوه والحمد لله. ولكن اللي بيشوفك من بره. يشوفك عكس كده؟ و ده شوفته في المراية. مين دي؟ وإزاي بقيت كده؟ من أمتي أتغذى الأبيض على شعري. في خصلات كتيرة متناثرة منه. وأيه الانتفاخات دي تحت عيوني؟ ومن أمتي حواجبي بقت كثيفة كده؟ والحزام على وسطي ليه وسع كده؟

كنت بقعد على الأرض وحاضنة ركبتي على صدري وبراقب الماكيت اللي مات بموت صانعه. حتى مادة الأبيض تبخرت منه. بحثت عنها في شقته. عن علبة يحتفظ بها بالمادة دي. لم أجد. لم أنسى إحساسي في المرة الأولى. يوم تلطخنا بها. لم أعرف إلى اليوم. سر نشوة الاورجازم غير

المتناهية فيها. لا أعرف مكونات ما تحتوي. لإني لم أهتم وقتها إلا بنشوتي.

أنا برضه مش عارفة ليه بحكى كل ده؟ ويمكن قدرت بمجرد الحكى إني أخرج من وحدتي.. يمكن ويمكن تكون آخر رسالة لي هنا.

***

40

كانت الخفّة مدهشة

خفة التحرر. وصار التأقلم أهون. أدركت معنى الخفة. الباطن الخفي للأشياء. يبقى جزء متحرر أجهل هويته. أجهل لغته. لغة التحكم. التودد إليه. الألفة به. أعود إلى الحدث. مات عادل. وذلك الشيء المتحرر من الجسد، والذي أجهل كينونته. يرافق الآخر، صديق عادل. يتحدث الآن، وفي صيغة من الوصف الممكن. رأيت عيني تزوغ والألم بلغ من الشدة حد السكون. السكون الذي يضعك في وضعية الإله في إدراك الخلود. جسدي همد. انتهى جسد عادل. وأرى من عين الآخر. جسدي السابق وهو ينتهي. أدركت جدوى الاستعانة بذاكرة الجسد القديم، التي تحاكي في عشوائية مشاهدها. توقعًا، لمستقبل يبدو بعيدًا. التفاصيل تتحرر من الماضي وترتب كيفية الفهم، وكيفية التعامل مع وضعية الجسد الجديد -جسد الآخر- المجهول، لا أدرك مدى إحساس جسده بي، ومدى استجابته من التلقي ومدى تكيفي في تلك المادية المجهولة، كلما حاولت فهمه. أستعنت برؤيتي السابقة لهذه الوضعية من قبل، في جسدي القديم، وأدركت عدمية السيطرة عليه – على جسد الآخر – الإرادة تكبلت بموت جسدي القديم. مفهوم الإرادة يتضح وينضح. أنا داخل جسد الآخر بكيفية لا أدرك إرادتها.

تحرك الآخر بهدوء، بخطوة متمهلة متمشيًا بين الخلق. أرى الوجود من منظور حدقتيه. لقد رأيت من قبل تبدل هذا المنظور. اقترب الماضي من صدق الحالة. هناك صوت لمكابح سيارة، لم يلتفت الآخر إليه. هناك مَن تنبأ بجسدي السابق، ملقى على الدكة الخشبية والدماء تملأ شقوق مربعات الأرضية، فتوقفت السيارات وازدحم الميدان، وربما لم يحدث شيء من ذلك.

انحدر إلى شارع جانبي ضيق وسار حتى نهايته، وعلى حائطه المتسخ ترتاح مقاعد خشبية. جلس وفتح هاتفه. رأيتُ رسالةً مدوّنًا عليها اسمي السابق. أحفظ تلك الصيغة. أقتلْ عادل، وأعاد الرد عليها برسالة. لقد تم. جلس ولم يأت أحد ولم يجلس أحد. ثم غادر المكان.

في اليوم التالي. أستعد بهدوء لخبر موتي أو بمعنى أدق، توقعت ذلك الهدوء، وضعي الآن ورغم كل محاولات التكيف معه، يشبه السمط في حجرة فارغة. في أثناء نوم الآخر. لا أنام. وأكون في حالة العتمة.

وبهدوء ذهب إلى عمتي، وبصخب هستيري صرخت في حضنه، وبصخب تمثيلي حاولت إخراج صوتي من فمه، لتهدئتها ولطمأنتها. كوني بخير وهو في مكان أمينٍ. لا يعرفه أحد. نظرت إلى عينيه وأكملت الارتجاف. كانت تبكي والجيران من حولنا. أخرج الجيران من الحجرة وأغلق الباب وهي تواصل البكاء. مسد بيديه عليها، كانت كالخرقة البالية. وهي على ساعده، ضم أصبعي السبابة والوسطى وأدخلهما إلى فمها وبحركة ناعمة. لمس لسانها. نظرت في عدائية فجائية مع حركته الهادئة ودهشتها من هدوئه. ضمت شفتيها وأغمضت عينيها، وارتخى جسدها، وجف حلقها، فهمست. مش قادرة. فجردها من الحزن وتلاصقا في قوة. ودموعها تسح من اللذة. قبلته وخرجت إلى الجيران

كالوردة بعد فيض المطر. لا أعرف تحديدًا. أيسرق الآخر أفكاري من الماضي؟ لقد تخيلت مشهدًا يشبه هذا من قبل.

طلبنى المحقق في القسم. أسئلة روتينية. جاوب بثبات وهدوء وبكاء. يجيد التمثيل والأداء الحركي. لم أتدرب عليه من قبل. هو استحق قتلي بصراحة.

في مراسم الدفنة. رأيت جسدي ملفوفًا في النعش، وأشخاصًا يحملونني إلى فتحةٍ في بطن الأرض ويدفنون جسدي السابق.

نهاد تقف إلى جانب عمتي. تبكي. اقترب الآخر منها وصافحها. قلت بصوت أرتد بداخلي ولم يخرج.

– أحبك.

صوتي معتم في جسد آخر.

– أريد ضمك.. أريد سماع منك كلمة مسامحاك.

قالت إلى الآخر.

_ لن أترك حق عادل.

– أنا قاتل أبيك.

– وهجيب حقه وحق أبويا.

– أنا لا أفهم شيئًا.. كيف وأنا قاتل أبيك؟

بعدها بأيام أضافت الآخر إلى قائمة الأصدقاء على حساب الفيسبوك، ومن متابعة الآخر لها وقراءتي إلى المنشورات المكتوبة على جدارها. تَأكدتُ إنها لم تعرف.

***